آیت الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

# تاریخ الفکر والحضارة

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص.ب. ٩٥٨٤

حقوق الطبع محفوظة
١٩٧٤

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فطر الخلائق بقدرتـه ، وهداهـم برحمتـه ، وهباهم من هدايتـه ، برسل العقـول والفطر والفكر ، ورسل آخرين ، مبشرين ومنذرين ، من خيـرة البشر • المصطفين الابرار • الطاهرين الاخيار •

والصلاة والسلام عليهم ما طلعت الشمس وغربت ، لا سيما خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد صلى الله عليـه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الميامين ، ومن تبعه باحسان الى يوم الدين •

# المدخل

••• دراسات في « تاريخ الفكر والحضارة » تضم بحثا عميقا انيقا عن مختلف تطورات الفكر والحضارة طوال التاريخ • نبرهن فيه ــ تأريخيا وواقعيا وعلمياً ــ أن رجالات الوحي هم وحدهم بُناة الحضارات وكافة التقدمات الإنسانية ، اللائقة بالانسان كإنسان ، فهم الذين حركوا الفكر الانساني الى الأمام ، وأخرجوه من ظلمات الأوهام والبطالات ، الى انوار الحق والبطولات •

فوحي الارض ليس بامكانه ــ وحده ــ بناء صرح رفيع من تقدم الفكر والحضارة ، اللذين يضيئان الدرب على الانسان المفكر والمتحضر ، اللهم الا على ضوء وحي السماء الذي يحمله رجالات السماء ، المبعوثين لاخراج الناس من الظلمات الى النور ، الى صراط العزيز الحميد •

ولئن اتخذت البشرية وحي السماء نبراسا ينير عليه

دروب الحياة • ومتراسا يدفع عنه منافيات الحياةومنافراتها، لعاشت على رغد الامن والعيش ، وحصلت على التعـايش السلمي السليم عما ينغصه • « ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون • أفأمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون • أو أمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون • أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون • أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهـم ونطبـع على قلوبهم فهـم لا يسمعون • تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين • وما وجدنا لاكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين » ( ٧ : ٩٦ ــ ١٠٢ )

في هذه الدراسات نذود كافة التهم الجارفة الموجهـة الى الديانات الالهية ، الخالصة عما سواها ، دروسا عـن صفحات التاريخ ، متحللين عن التعصبات العارمة التي تربط خيرات الحضارات الى وحي الارض ، وانسـان الارض المتحلل عن وحي السماء •

فعلى رواد الفكر وطلاب الحضارة الصالحة حمل هذه

الرسالة الفكرية الى بني الانسان كافة • ولكي يعلموا ان الحضارات كل الحضارات نابعة من وحي السماء ، ونابغة بوحي السماء •

**محمد الصادقي**

بيروت ١٣٩٤/٨/١ هجرية
١٩٧٤/٨/٢٠ ميلادية

## الفكر في بحوث :

### الفكـر لغويـا :

الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم ، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظرة العقل ، وذلك للانسان دون الحيوان، ولا يقال الا فيما يمكن ان تحصل له صورة في القلب ماديا او معنويا ، ولهذا روى : تفكروا في الآء الله ولا تفكروا في ذات الله ، اذ كان الله منزها ان يوصف بصورة ، ورجل فكير : كثير الفكرة ، وقال بعض الادباء : الفكر مقلـوب من الفرك ، لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فرك الامور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها .

### الفكـر منطقيـا :

الفكر هو حركة من المبادىء ومن المبادىء الى المراد : ان تنظم المبادىء كما يجب ، ناحية نحو المطلوب ، وحاوية المكشف عنه ، فكلما كانت المبادىء أصح تنظيما وأقرب تفاعلا مع الواقع ، كانت النتيجة اقرب الى الواقع ، أو

هي الواقع بعينه فالمنطق من الشروط الاصيلة او بصيغة اخرى هو حجر الاساس للوصول الى النتيجة الصالحة من التفكير ، وعلى حد تعبير الامام الصادق عليه السلام : العامل على غير بصيرة لا تزيده سرعة السير الا بعداً عن الطريق •

**الفكر خلقيا :**

لقد تولد الفكر الانساني مع الانسان قرينين ، اذ خلق الله فيه الفطرة الانسانية والعقل ، والفطرة هي حجر الاساس للعقل ، كما العقل كذلك بالنسبة للفكر ، والنسبة المنطقية بين العقل والفكر ، كالنسبة بين العقل والفطرة عموم مطلق : فكل انسان عاقل هو ذو فطرة انسانية ولا عكس، كما في المجنون ، كما ان كل مفكر عاقل وليس كل عاقل مفكرا •

**الفكر فلسفيا :**

الفكر فلسفيا يعني الجزء غير المحسوس في زاوية الادراك الانساني النشيط الذي يحاول الحصول على المجهول في واقع الكون وفي صالح الانسان في حياته الانسانية، وبصيغة أخرى : ان الفكر هو الانسان والانسان هو الفكر ، ومحل الفكر من الانسان هو المخ والدماغ ،

فلا يستطيع الانسان ان يفكر بسائر حواسه واعضائه الا بآلة المخ الذي هو محل العقل ، كما الفطرة الانسانيـــة محلها القلب ، وكافة القوى العاملة في الانسان عمال للقلب الذي هو الأم بالنسبة لأجزاء الانسان المحسوسة وسواها ، وعلى حد تعبير الامام جعفر الصادق عليه السلام : القلوب أئمة العقول ، والعقول أئمة الافكار ، والافكار أئمة الحواس والحواس أئمة الاعضاء [1] . .

**الفكـر دينيـا :**

الفكر في الاصطلاح الديني ــ ولا سيما الاسلامي ــ من أهم العوامل المسعدة للانسان دنيويا واخرويا ، وقـد أمر به (١٨) مرة في القرآن ، وكما أمر باعمال العقل الذي هو عبارة اخرى عن التفكير (٤٨) مرة ، تنديدا بمن لا يعقل ولا يفكر ، وان مصير هؤلاء الذين لا يسمعون ولا يعقلون الى السعير: « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهـم فسحقـا لأصحـاب السعير » (٦٧ : ١٠) [2] .

---

(١) اصول الكافي باب العقل والجهل .
(٢) الرقم الاول رقم السورة القرآنية والثاني رقم الآية، طوال بحوث الكتاب .

والصيغة الحاكية عن الجزء غير المحسوس من الكيان الانساني ، بصورة شاملة هي الروح • المذكورة في القرآن ( ١٩ ) مرة وكذلك النفس في الاكثرية الساحقة من اطلاقاتها (٢٩٥) مرة •

ثم نجد هناك تعابير شتى عن مختلف بيئات الروح ووظائفها : فقد يعبر عن وعي الانسان للحقائق وعقالهللباطل (١) بالعقل ( ٤٨ ) مرة • وعن تأمله وتعمله وسعيه لوعي أكثر : وعي المجهول في واقع الحياة أو ما يحتاجه الانسان في حياته الانسانية ، يعبر عنه بالفكر (١٨) مرة •

وعن نتاج التعقل والتفكير ، وهو الوصول الى مرحلة اللب من وعي الواقع ، باللب (١٦) مرة ، اعتبارا انه لب العقل وخالصه ، حينما العقل يتحلل عن قشوره ويبقى لبا ، أي : عقلا خالصا ينحو نحو المعقولالمجهول • اذ ان : انارة العقل مكسوف بطوع الهوى ، فالتعقل الصادق الصحيح يحلل العقل عن طوع الهوى وقشره ، ويوصله الى لب الواقع حسب مراتب الكدح وكيفيته في هذه السبيل •

---

(١) عقال الباطل اي قيده وسكر عليه باب الحرية ، وقد اخذ العقل من هذا الأصل .

ويعبر عن سكن هذا النتاج العقلي والفكري بالصدر (٤٤) مرة ، حيث ينفتح وينشرح بنور الحق واليقين .

ويعبر عن تمكنه العميق في عمق الروح في وعاء الصدر بالقلب (١٣٢) مرة ، وأحيانا بالفؤاد (١٦) مرة « وانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

ويعتبر القلب مركزا للايمان أو الكفر في اقوى مراحل الادراك الانساني ، فكم من عاقل مفكر ليس له ايمان صحيح ، اذ لم يصل الى اللب ، حيث أخطأ الطريق في التفكير ، او لم يقرن التفكير بالعمل ، اذ ان من المفروض في واقع الايمان قرن التعقل والتفكير بالعمل الصالح ، الذي يتطلبه التفكير ، ولذلك ترى النسبة المنطقية بينهما أيضا عموما مطلقا ، فكل مؤمن موقن بقلبه ، عاقل مفكر ، وليس كل مفكر مؤمنا ، وكما يقول القرآن : « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا » (٢٧ : ١٤) .

اذا فالعقل بتفكيره وبلبه وبصدره الحاوي لحاصل كدحه ، انه يصبح من اجناد القلب وعماله ، والنقطة الرئيسية في هذا الميدان هي المحاولة الدائمة لاعمال العقل وتفكيره ، بتطويره وتحويره ، ولكي يتعرف الى الواقع المجهول من الكون وما تتطلبه الحياة الانسانية .

### ٢ ـ الفكـر المتطـور :

الفكر المتطور هو المتكامل على ضوء المواصلـة في التعقل ، والانسان غير المفكر وغير المتطور في تفكيره مثله كالانعام أو أضل سبيلا : كالجماد ليس مصيرهم الا الى جهنم وهم حطب جهنم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم أضـل سبيلا أولئك هم الغافلون (٧ : ١٧٩) .

انهم غافلون في الحياة عما تتطلبه الحياة الانسانية ، ومهملون التفكير والتعقل ، واننا نجد الكثير من الآيات القرآنية تعتبر غير المتعقل أشر وأخسر من غير العاقل وأضل سبيلا ، اذ يظلم نفسه ويظلم مجتمعه الذي يعيش فيه ، باهماله اعظم معطيات الحياة وهو التفكير .

فحجر الاساس في انسانية الانسان ، وعلى حد تعبير كتب الوحي ولا سيما القرآن ، نجده في تطويـر الفكـر وتحويره ، الى حيث يعتبر : « تفكر ساعة خير من عبـادة سبعين سنة » ، حيث العبادة التقليدية دون تفكير ودون اقناع فكري : في واقع العبادة وتناجها ، هذه العبادة لا تدوم ، وقد تتبدل الى عبادة الشيطان ورفض عبادة الرحمان اطلاقا .

وهنا نجد من أهم الدلائل الواقعية على صدق الاديان الالهية وحضاريتها وتقدمها ، نجده في تحريضها على تطوير الفكر وتقدمه ، وكفاه دليلا قاطعا على ان الدين لا يتنافى مع العلم ،بل ويتطلبه ، ويعتبر موضحا لحقائقه ، وعلى حد تعبير ابن عباس : « ان للقرآن آيات متشابهات يفسرهـا الزمن » الزمن المتطور بتقدم العلم يفسر متشابهات القرآن، التي لم يكن يفهمها البشر غير المتطور وغير المتقدم في العلم، اذ لا تشابه في القرآن من حيث الدلالة اللفظية ، وانما من حيث عدم بلوغ العقل والعلم ، فكلما تقدم العقل البشري وتقدمت العلوم ، ظهرت حقائق من القرآن لم تكن لتظهر من ذي قبل •

### ٣ ـ الفكـر الحضـاري :

الحضارة لغويا هي الاقامـة في الحضر أي المـدن والقرى ، بخلاف البدائة ، اذا فهي الاستقرار الذي ينشأ عن زراعة الارض وألوان الصناعات وبناية البنايات ، وهو السبيل الذي تنفسح فيه لأبناء المجتمع مجالات التطور ، فاذا ولجوها تقدموا في فنون اكتساب العيش •

وهي عند ابن خلدون طور طبيعي او جيل من اجيال طبيعية في حياة المجتمعات المختلفة ، وهكذا البداءة • ولكن

البداءة أقدم ، وأصل الحضر والحضارة غايــة للبداوة ، وترادف الحضارة المدنية •

هذا : ولكن علينا ــ في نطاق البحث عن الحضــارة الانسانية الفكرية ــ ان نتوسع في معناها الى النواحــي الروحية المعنوية أيضا وبالاحرى ، اذ ان الحضارة التــي تعني تقدم الانسان لا بد وان تعني التقدم الروحي ، أي التقدم في انسانية الانسان لا الناحية الحيوانية منه فحسب، فالحضارة الانسانية هي تطبيق الانسان نفسه على حاضر الواقع الحيوي وما يحتاجه في شتى مجالات الحياةالانسانية بمعناها الصحيح •

فبالرغم من ان الحضارة المادية هي غايــة العمران ، واخيرا هي مبعث الفساد والانهيار ، فان الحضارةالانسانية غايتها الكمال الانساني والتقدم الى كل ازدهار في الحياة، لا الانهيار ، ولو ان الحضارة قورنتفي مصداقيها ــ المادة والمعنوية ــ واعتبرت المعنوية حجر الاساس ، لم تكــن النتيجة الحاصلة عنها الانهيار والبوار •

فنحن اذ نبحث عن الحضارة لا يتوجب علينــا ان تتجمد على المعنى اللغــوي أو الاصطلاحي ، انما علينا أن ننظر من وراء هذه الكلمة الى المفهوم التقليدي لها ، أي الى خصائص التقدم في المجتمعات التي ندعوها متحضرة ،

وهذه الخصائص تنقسم الى روحية ومادية ، والى فردية وجماعية .

ومن اهم الحضارات الفكرية ما تتلاءم تماما مع الحضارة الدينية ، أو بصيغة أخرى : ان الاخيرة تستوجب الاولى تماما ولا سيما في الشريعة الاسلامية .

والفكر الحضاري هو المتفاعل مع الواقع الخارجي بالنسبة للحياة ومتطلباتها ، والبشرية ـ كما نعلم ـ في محاولة دائمة للكشف عن واقع الحياة ، وواقع الهدف من خلق الكون وخلق الانسان ، ولكي تحاول في تحقيق الانسجام التام بين الواقع والسعي في سبيل الواقع . ولكي لا تذهب مساعيه في الحياة هباء منثورا .

فهناك تفكيرات متحللة عن الواقع ، وما هي الا تخيلات وأوهام لا تملك من مقومات الحقيقة شيئا ، الا ما يخيل الى أصحابها .

وهناك تفكيرات متفاعلة مع الواقع ـ ولا اقول كلها ناجحة ـ انما اقول هي اقرب الى الواقع ، لانها في صراط الكشف عن الواقع بنفس الواقع ، اذ تتفاعل معه .. ولا سيما لو كانت مهتدية بهدي الوحي ، سالكة مسالك الوحي، الذين لا يصدرون الا عن الله .

والبشرية مهما كانت راقية ومتقدمة في التفكير ، لا بد وان تجهل الكثير من مجهولات الحياة ، دون انتستطيع الحصول على الواقع تماما ، اذ انه ما اوتي من العلم الا قليلا ، لو كان تفكيرها حول الانظمة والواقع المادي فحسب فكيف بسواها : من الامور الروحية والمعنوية .

فاذا حاول الفكر في تطوره ، التفاعل مع الواقع الخارجي ، والتفاعل مع ما يحتاجه الانسان في حياته المادية والمعنوية ، اذن فهو في طريق مستقيم .

ومما يتوجب على المفكر في هذا السبيل ان يمارس التفكير في نفسه وفي آفاق الكون ، نظرة متحللة عن الماديات . ثاقبة نافذة الى ورائها ، دون أن يتجمد فيها نفسها ، وعلى حد تعبير الامام علي عليه السلام في صفة الدنيا «من أبصر بها بصرته ومن أبصر اليها أعمته »: « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » (٤١ : ٥٣) .

هنا نجد من أوليات ما يحصله الانسان، على ضوء الفكر المتفاعل مع الكون ، نجدها فكرة الإلٰه ، فانها من اوليات الحضارات الفكرية واحراها ، حيث الواقع بكافة ما فيه من ظاهره وخافيه يدلنا : ان هناك إلٰها ، بالرغم مما يخيل

الى بعض الناس : انه ليس هناك من الله ! زاعمين : انالعلم ــ ولا سيما العلوم التجريبية ــ لا تؤيدها ، او وتتنافى معها ، وهذه اول سقطة في الفكر البشري ، وأردأ الارتجاعات والانحرافات الفكرية طوال التاريخ ، فانها ليست الا من عدم التفاعل الصحيح بين الفكر والواقع ، أو سوء تفاعله ، لسوء عوامل البيئة ، او دوافع الشهوة ، او السياسة ، او الاخلاد الى ظاهرة المادة دون تفكير في سواها ، ولسوف نبرهن في البحث التالي : ( الفكر الديني ) ان الدراسة والتفكر المتفاعل مع الواقع كيفتنتج فكرة الاله :

**٤ ــ الفكر الديني :**

الدين قد يفسر بما يشمل كافة العقائد ، سواء أكانت الهية ام بشرية ، كتابية ام سواها ، وقد يفسر بما يخص الاديان الإلهية والتشاريع السماوية ، وهذا هو الصحيح.

ثم الدين الالهي ايضا ينقسم الى ما بقي خالصاً عن شوائب الاوهام واضغاث الاحلام ، وما تسربت وترسبت فيه الخرافات والاساطير مهما قلت او كثرت .

وتقسيم آخر للاديان الخالصة عن الخرافات : انها اما ان شرعت لزمن محدود ام لحد الخلود .

ثم الفكر الديني قد يعني فكر المعتنقين بالدين ، وقد يعني سنة الشارع الإلهي وحكمه ، ونحن نعني هنا من الاقسام المذكورة : الخالص منها ، محدودة وسواها ، للشارع او لمعتنقيها .

**الفكرة الدينية الالهية :**

فالدين الإلهي يتقدم حسب تقدم الانسان وحاجاته الحيوية وابتلاء للناس : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهوائهم لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ( ٥ ٠ ٤٨ ) . فالشريعة هكذا تتقدم ، لا لعامل الجهل في السابق منها ، ثم التعرف الى المجهول متدرجا في اللاحقة ، لان الاديان الإلهية كلها من الوحي الإلهي الذي ليس فيه اي جهل او نقصان .

واخيرا ينتهي الى قوانين حكيمة خالدة تمشى مع الزمن ، فلا يُخلقها ولا ينسخها تقدم العلم والحضارة ، ما طلعت الشمس وما غربت، وهو الدين الاسلامي السامي دون ريب ، فانه بقرآنه الذي هو المصدر الأصيل للشريعة

يجري كجري الشمس ، وهو إمام العلم وأمامه وقدامه ، لا يتأخره ولا يقارنه ، فانه في الحد الاخير مما يتمكن الانسان ان يتقدم فيه في شتى مجالاته الحيوية ، يدعو البشرية الى التقدم والحضارة ، والى الفكر الصحيح المتفاعل مع الواقع ، والى الحياة السعيدة الدنيوية ، والى حياة الخلود ، وقد يأتيكم نبأه الفصل في المقارنات .

وبصيغة عامة لا نجد أية حضارة وفكرة صالحة طوال التاريخ الا ان مصدرها الاديان الإلهية ، بصورة مستقيمة، رغم الدعايات الضالة التي تجعل من الأديان غيلان تغتال البشر وتصده عن التقدم ! وان بينها وبين العلم والحضارة بون شاسع ! فهذه الدعايات بين جاهلة وعامدة : جاهلة اخذت حجر الاساس فيها الاديان المحرفة والاساطير الدخلية في الاديان ، وعامدة تريد القضاء على التشاريع العادلة الالهية ، اذ تراها مانعة عن الشهوات والحريات الشريرة الظالمة .

فبالرغم من هذه الدعايات الزور نحن اذا درسنا موقع الاديان الإلهية في التاريخ درسا دقيقا ، نجدها من اعظم بواعث التقدم والحضارة بمعنييها دون ريب .

**الفكـرة الدينيـة للدينـيين:**

ثم نجـد تطورا ملموسا في المعتنقين الأديـان ـ في غير المنحرفين منهم ـ الذين يطبقون الدين بكامله ، كلما كان حظهم في التطبيق اكثر ، نجد تقدمهم وتطورهم اكثر فأكثر .

ثم المفكرون الاخرون المتحللون عن الدين الإلهـي نجدهم ـ احيانا ـ متقدمين على ضوء ما اخذوه مـن التعاليم الدينية ، رغم ما يدعون احيانا تحللهم في ذلك عن الدين الإلهي اطلاقا ، والسير التاريخي في تطور الفكـر يؤكد لنا هذه الحقيقة الناصعة بلا ريب كما يأتي :

فالفكرة الدينية بين الفكر ـ ولا شـك ـ رابطـة اجتماعية تصل الناس بعضهم ببعض ، وتلبي حاجتهم الى التعاون والتشارك ، وتؤلف قلوبهم وتنظم سلوكهم ، فان للدين اهميته الكبيرة في ذاته ومن حيث تأثيره في الحيـاة والتاريخ ، وله دلالة حضارية عميقة لأعلـى مستويـات الحضارة .

ان الرباط الاقتصادي والسياسي ، وكذلك الربـاط الاقليمي واللغوي ، وحتى الرباط النسبي ، هذه الرباطات ليست بالتي تربط المختلفين وتقضي على خلافاتهم . فانما

الرابطة العريقة هي العقيدة والدين الإلهي • حيث تجمع بين مختلف القطاعات البشرية رغم اختلافها الوفير فيما سوى العقيدة والدين •

وبما ان حجر الاساس في الحضارة هي الوحدة بين المختلفين ، فالدين اذاً هو حجر الاساس للحضارات : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينـــات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » (٢ــ٢١٣) •

وليس اختلاف الاديان مما يدفع بني نوع الإنسان الى الإختلاف ، انما الدافع الاول والاخير ، من هؤلاء الذين أوتوه ، اذ لم يؤمنوا به تماما • وزادوا فيه أو نقصوا ، فلو انهم كانوا مؤمنين بالله حقا لما اختلفوا في الدين ولا عنه ، بل كانوا محتفين حول الدين الالهي دون خلاف[1] •

اجل ان الدين هو الداعي الوحيد الى الوحدة ، وحدة

---

(١) راجع علل الاختلاف في الدين في الصحيفة ١١٥ مـن كتابنا المقارنات .

الامة البشرية على ضوء التشاريع الإلهية ، دون ان يحكم بينهم الا حاكم الحق والشريعة الإلهية .

فكم من حضارات انهارت بدافع الخلافات العارمة الهدامة . وكم من خراب عمر على ضوء وحدة العقيدة والدين ، والتاريخ اصدق شاهد على ذلك .

فالفكرة الدينية هي التي تدعو البشرية الى إعمال العقل والفكر والانتفاع من كافة معطيات الحياة « خلق لكم ما في الأرض جميعا » « قل أنظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

وهي التي تدعو الى إله واحد ، وتربط كافة الاتجاهات والنيات الى الله تعالى . لكي يعمل الانسان صالحات الاعمال فردية وجماعية ، دون ان يبغي جزاءً من بني نوعه ولا شكورا . الا مرضاة الله تعالى .

وهي التي تدعو الى الوحدة والتعاون في سبيل الحق ... وهي .. فلا نجد اي صالح من مصالح الحياة الا والديانات الإلهية جعلتها حجر الاساس في دعواتها . وكما يأتيكم نبأه الفصل حين نسبر غور التاريخ في مقارنات الافكار .

فهناك نظامات بشرية تفرض على الاجتماعات من خارج ، واخرى الهية تقوم وتنبعث من الداخل : داخل كل فرد من افراد المجتمع ، فهل يا ترى أي النظامين اعدل ؟ ثم ايهما اقرب الى التطبيق ؟ لا ريب انه الالهي العادل غير الخاطىء الذي يراقب الانسان من داخل ذاته وعقيدته .

فاذا كان الارتباط في العادات والأعراف داخليا عفويا ، فانه في الانظمة والاحكام ابدي . وأبين لما يتخلله من عقلانية ومن ارادة للتنظيم والتنسيق ، وهذا هو شأن الدين ، فانه ليس مجموعة عقائد متفرقة وعبادات منتشرة ، بل هو وحدة متصلة متماسكة : بين عباداته ومعاملاته وسياساته واقتصادياته ، يربطها جميعا رباط الايمان بالله تعالى .

**اول الفكر الدينية :**

ان الاديان المقدسة الإلهية اول ما تدعو اليه من الحضارات العقلية والفكرية ، انما هو فكرة الإله الواحد التي هي نقطة الانطلاق لكافة الفكر الحضارية ، المادية والمعنوية .

هذه الفكرة المقدسة المتفاعلة مع الواقع تماما تحرر الإنسان عن عبادة الاوثان والاصنام والطواغيت ، وعن الخضوع لما سوى الله الواحد القهار الذي بيده ناصية كل شيء .

انها تبعث الانسان عن الاخلاد الى المادية والحيوانية• تبعثه الى الاتصال العقلي والعلمي والعملي بخالق الكون• وان يتبع ما سنه من قوانين كونية وشرعية• ولكي يفلح في الحياة الانسانية •

انها فكرة طالما يفكر فيها عباقرة العلوم التجريبيـة وسواها [1] معتبريـن موانع الايمان بالله :

١ ــ الظروف السياسية المستبدة التي ترمي الـى شيوع الالحاد ومحاربة الايمان بالله •

٢ ــ المنظمات والبيئات الكنسية المسيحية التي تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم : في إلـه هو على صورة الانسان مثلث الاقانيم ، صلب بأيدي عبـاده ضحية لذنوبهم •

٣ ــ وطبيعة التحلل عن القوانين الإلهية المحـددة للشهوات ، هذه الطبيعة الشريرة التي قد تقضي على قضاء العقل والفطرة •

لذلك نرى الملحدين في الله بين المسيحيـين اكثـر

---

(١) راجع ص ٢١ ــ ٣٠ من كتابنا ــ حـوار بين الالهيين والماديين .

منهم بين سواهم : من الملبين ، اذ ان العلم وان كان يصدق فكرة الإله أصالة ، ولكنه يتنافى وكون الإله انسانا عاجزا ولد وصلب ، لذلك تراهم يرفضون فكرة الإله ، لا لشيء الا لان الاله الذي اعتنقوه منذ الطفولة في الكنائس ليس الذي يمكن ان يكون خالقا للعالم .

ثم نرى هؤلاء العلماء التجريبيين يعتبرون علومهم من اكبر الدوافع للايمان بالله ، وذلك بالرغم من ان البحوث العلمية لم يكن يقصد من اجرائها اثبات وجود الخالق، فغاية العلوم هي البحث عن خبايا الطبيعة واستغلال قواها، وهي لا تدخل في البحث عن مشكلة النشأة الاولى ، لانها من المشكلات الفلسفية ، والعلوم التجريبية لا تهتم الا بمعرفة : كيف تؤدي الاشياء وظائفها ؟ وهي لا تهتم بمعرفة: من الذي جعلها تعمل او تؤدي هذه الوظائف ؟

ولو ان جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من الادلة على وجود الخالق بنفس روح الامانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به الى نتائج بحوثهم ، ولو انهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فانهم سوف يسلمون ــ دون شك ــ بوجود الله وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق .

فدراسة العلوم بعقل منفتح سوف تقودنا ــ بدون

شك ــ الى ادراك وجود السبب الاول الذي هو اللــه •

وهناك دوافع اخرى تدفع الانسان الى الايمان بالله حفاظا للكيان الانساني وبعثا له الى كافــة الحضــارات ومتطلبات الحياة [1] كتحللة عنقيودالهوى المردية وأخطائه المتواصلة عقلية ومادية ، وان النظــام التربوي الذي يناسب كل الناس في سائر الازمان يقوم على الايمان بالله •

فالدين من الوجهة البيولوجية يمكن تعريفه بأنــه عبادة الانسان لقوة عليا لا نهاية لها ، نتيجة لشعوره بحاجة في قرارة نفسه الى هذه القوة •

وعلى حد قول « ماكس بلانك » العالم الطبيعي الذي فتح الطريق الى اسرار الذرة : ان الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معا في معركة مشتركة ضد الشــك والجحــود والخرافة ، ولقد كانت الصيحة الجامعة في هذه الحــروب ــ وسوف تكون دائما ــ الى الله تعالى •

**جبــر التــاريــخ :**

الجبر لغويا : هو اصلاح الشيء بضرب من القهــر ، وقد يقال للقهر المجرد : كالجبار العنيد •

---

(١) راجع ص ١١٨ ــ ١٢٣ من كتابنا ــ حوار بين الإلهيين والماديين •

وأيا كان فمما لا ريب فيه ان الدين جابر للتاريخ أي مصلح ، يصلح الفاسد من التفكيرات الجاهلة الشريرة، والاعمال غير الصالحة ولا نجد طوال التاريخ مصلحين سوى الأنبياء وأتباعهم ومن تغذى شيئا من تعاليمهم النيرة .

فهناك في التاريخ جبار عنيد وهو الفكر المادي الالحادي الذي يجعل من الانسان جمادا لا يتحرك وحيوانا لا يهوى الا الى الشهوات ، او مكينة ليست الا للعمل لصالح الشهوات .

وهناك جبار مصلح وهو الفكر الديني الذي يجعل من الانسان ملكا نورانيا او افضل منه ، وكادحا الى ربه كدحا وساعيا في كافة مجالات حياته لصالح الحياتين .

ثم نجد معاركة متواصلة بين الجبرين طوال التاريخ « الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » ( ٢٢ : ٤٠ ) .

وانما تأخر الجابر الصالح للتاريخ ــ ايا كان ــ انما هو لتأخره عما يجب عليه من التضحية في سبيل الله وعدم

مكافحته الجبارين المفسدين ، وقد تتحقق المكافحة الصالحة الحاسمة للافساد في اخر الزمن حيثما تسفر صبح الدولة الانسانية على ضوء دولة المهدي عليه السلام •

**جبر التاريخ في المصطلح :**

انه اصلاح التاريخ نفسه ، كل غابر حاضره وكل حاضر مستقبله ، فان التاريخ انما هو ابن نفسه • كل لاحق ابن ماضيه ، كما ان رجال التاريخ كذلك •

وليس التاريخ موجودا مستقلا له كيان منفصل عن رجال التاريخ المصلحين ، وانما هو مدرسة لمن يريد ان يدرس درس الاصلاح ، فلينظر الى تاريخ الشعوب ولكي يعتبر بما مضت عليهم من حوادث ناتجة عن حسن تصرفهم أو سوء تصرفهم •

فمن الزعماء من يدرس درس الشيطنة والملعنة من التأريخ ، كيف يدجل ويوسوس حتى يستحكم عرشه لايام قلائل : وهم الاكثرية الساحقة •

ومنهم ــ وهم الاقلون ــ من يدرس دروس الاصلاح من اعماق التاريخ • ولكي يجمع كافة المصالح في زمنه لشعبه ويصبح تاريخا صالحا لمن يستقبله بعده ، وهؤلاء هم بناة التاريخ المصلحون •

والانسان كائنا من كان انما هو ابن ماضيه ، الا من كان كيانه وحي السماء فليس ــ اذا ــ الا ابن الوحي ، يرتضع من ثدي الوحي ويرضع الشعوب كما يقتضيه وحي السماء ، وافق ماضيه أم خالفه .

واصطلاح آخر : ان التاريخ يجبر أبناءه أن يمشوا ممشاه ، شاءوا أم أبوا ، وهذا هو المعنى الصحيح لـ « ان الانسان ابن ماضيه » .

ولكنما الانسان الحر يحاول أن يكون ابن نفسه ، بما يختاره من صالح للحياة ، دون ان يجبر بالتاريخ ، أو تؤثر فيه عوامل البيئة التي يعيشها ، وانما يؤثر في مجتمعه تأثيرات صالحة ويصبح من بناة التاريخ ، دون ان يتبناه جبرا على نفسه .

**التفسير الواقعي للتاريخ :**

ونحن اذا فسرنا التاريخ ، متحللين عن الاراء الفاسدة، والانحرافات الجارفة ، ناظرين الى حوادث التاريخ من منظار الحق والصدق وجدنا ان الافكار المحركة للتاريخ نحو التقدم والرقي انما هي من رجالات الوحي ومن نحى منحاهم .

وهناك من يحرف التاريخ عن واقعه وينسب الكثير

من التفكيرات الصالحة الى غير الصالحين من ماديين ومثاليين • أو منحرفين عن التشاريع الإلهية أيا كانوا ، مختلسين هذه الافكار الصالحة من اهلها الصالحين ، وهذا ظلم في التاريخ وانحراف جارف ، وقد نبحث في البحث الاتي : « الفكر الفلسفي » في قسم الافكار المحركة للتاريخ، نبحث هناك ما يفضح الخونة المختلسين • والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم •

**الفكر الفلسفي : الواقعية ـ المثالية ـ المادية :**

التصفح الفلسفي في صفحات التاريخ ينتج ان هناك افكار ثلاثة : وهي في نفس الوقت حاصرة عقليا : مثالية ـ مادية ـ واقعية •

**المثالية :** وهي على ضربين : سوفسطائية وعقلية والثانية تعني أصالة العقل كما سيأتي •

والمثاليون السوفسطائيون هم القائلون : ليس هناك من حقيقة ، مادة أم سواها ، انما مثال الحقيقة وصورتها ، فليس للكون وجود فعلي ـ كل ما في الكون وهم او خيال او عكوس في المرايا او ظلال ـ فاننا لا تتمكن من تصور العالم ـ لو انه موجود ـ بصورته المادية من طريق المفاهيم الفيزيائية الجديدة ، اذ لا سبيل لنا للتعرف الى

الكون • الا من طريق المفاهيم ، وهي صـــور غير ماديـــة وليست الا مثالية الوجود لا نفسه ، فانما تحكي عن الواقع حكاية مثالية لا واقعية • وبين الحاكي الوهمي المفهومـــي والمحكي الواقع بون • والتعرف الى الواقع علـــى فرض وجوده لا يصح ولا يحق الا بالوصول الى الواقع نفسه ، اذ ان الحكاية ولا سيما الناقصة لا تغني عن الواقع •

ويقولون : لا ننكر ان بالامكان تصديق الواقع ، انما نقول : هذه الحكاية المثالية ــ على ضعفهـــا في نفس الذات ــ فاشلة من حيث عدم توافقها للواقع ، اذ نجـــد الكثير من هذه الحكايات غالطة كاذبة •

ولنتساءل هؤلاء السوفسطائيين ، لو كان هناك حقيقة ، ترى كيف يجب ان تكون : ذاتها وصفاتها وآثارها ، التي لا تجدها الان ، وكيف كان بمستطاعنا ان نتعرف اليها ؟

فهل كنا نجد ذات الكون بمادته في ذواتنا لكي تختص حقيقته بنا ؟ فهذا من المحال عقليا ان ينتقل هذا الكـــون الواسع ، مترامي الاطراف ، ينتقل الى دواخـــل ذواتنـــا المحدودة ، التي هي ليست بالنسبة للكون اجمع الا كنسبة الذرة الى البحر المحيط •

نغض النظر عن استحالة هكذا انتقال ، فهل باستطاعة

الانسان ان يجد غير ذاته وجدانا حضوريا ذاتيا دون وساطة صورة عنها ، وهو لا يجد ما في باطن جسمه من أجزاء بالعلم الحضوري رغم حضورها فيه، انما يجد روحه نفسها هكذا وجدان ، فليس للانسان وجدان غيره الا بالاحساس أو تصور صورته .

اذا فالقول : أن الكون وهم ، لاننا لا نجده في ذواتنا هذا هو الوهم ، أجل بالامكان أن تشكو في حقيقة الكون اذ لا تجدون من وسائل التأكد منه الا التصور وهو على حد قولكم لا يغني عن الحق شيئا .

ثم نقول : لا يحق لكم الشك ايضا ، اذ ليس سنادكم في هكذا شك الا اختلاف التصورات الحاكية عن الكون ولكنه لا يبرر الا الشك في كيفية الكون لا في واقعه ،فمن الممكن ان يشك الانسان في كيفية كائن ما مع العلم بانه كائن كما في كينونة الإلّه .

ثم نرجع ثانيا ونقول : هل ان لرأيكم هذا : ان الكون وهم ، هل له حقيقة ؟ ام انه ايضا وهم كسائر الكون ؟ فان كان وهما متحللا عن اية حقيقة كانت النتيجة : ان للكون حقيقة ، دل عليها حكمكم بوهمية الكون .

وان كان حقيقة فهذا يتنافى وحكمكم بوهمية الكون

اجمع ، اذ ان هذا الحكم ايضا هو جزء كوني . اذا فالحكم بان الكون وهم ــ تصديقه وتكذيبه ــ تصديق لحقيقة ما للكون وان كانت نفس هذا الحكم .

ثم نرجع ثالثا ونقول : بعد استحالة تحقق الكون بذاته في ذواتنا ، ينحصر التأكد من حقيقة الكون في الاحساس والتصور ، وهنا نسأل : لو كان للكون حقيقة كيف كنت تحسه او تتصوره ، انت لا تحسه وتتصوره الان ؟ هل دون شكل ولون وحركة وسكون وحرارة وبرودة وطعم وثقل وطول وعرض وعمق ؟ اذا تصبح الحقيقة اسوأ حالا من المجاز .

او كنت تجده مع كل هذه الحالات التي تجدها الان دون اي نقصان ؟ اذاً فما هو المبرر للشك فيه او التأكد من انه مجاز ووهم لا يحمل آية اصالة خارجية ؟

ورابعا : ان هكذا حكم على الكون خلاف المحسوس القاطع من ادراكاتنا ، والفرق بين الوهم والقطع هو الفرق بين الشك والقطع ، فاذا لا نجد ما يريبنا في حقيقة الكون فما هو المبرر لان نعبر عنه بالموهوم والمجاز .

وخامسا : ما دمت غير مؤهل للوصول الى حقيقة الكون فهلا تجد ذاتك ايضا : انها موجودة ؟ ولذلك تستطيع

أن تتوهم وتحكم ، والا كان حكمك بالوهم وهما في وهم• فالتأكد من حقيقة ذاتك تأكد منك ان هناك حقيقةً مّا ، وفيه الكفاية للبحث عن حدوثه وأزليته •

واخيرا لو انكرت الحقيقة في ذاتك ايضا فسواء لك أهتكناك أم احترمناك ، ضربناك ام كرمناك ، اذ ان الذات الوهمية صفاتها وعوارضها ايضا وهمية لا تؤخـذ بعـين الاعتبار •

هذه هي المثالية السوفسطائية التي ذهب اليها شردمة من الناس • وسوف نبحث عن العقلية ايضا •

**المـاديـة :**

لقد مضى على التاريخ الانساني ادوار مادية وحتى الان ، المتمثلة في الماديين والوثنيين على مختلف اصنافهم ، وهذه ايضا كالمثالية السوفسطائية فكرة رجعية لا تتفاعل مع الواقع المطلق ، انما مع الواقع المجاز المختلق متحللا عن حاق الواقع وعن مصدر الكون الذي هو الواقع تماما ، بالرغم من ان الكون بكافة ما فيه برهان لا مرد له على ان هناك مكونا لا محالة ، لولاه لاستحال الكون اطلاقا •

**المـادة لا سواهـا :**

الماديون يزعمون ان المادة تشمل كل مجالات الكون

ولا يسمحون للموجود غير المادي ان يتسمى بالكائـن ، مدعين ان الفكرة الميتافيزيقية المعتنقة تصديق الإلٰه المجـرد عن المادة، فكرة رجعيةخرافية لا يساعدها العقل ولا العلوم التجريبية ، ولا تتلاءم مع العلم إطلاقاً .

واخيرا ينكرون وجود الإلٰه المجرد عن المادةويقرون أن الخالـق لمختلف تطورات المـادة هي المادة الاوليـة لا سواها .

ثم هم بين مدع لأزلية المادة ، وقائل بحدوثها : وان العالم ليس الا تسلسل الحوادث المادية:« أزلية التسلسل » دون ان تكون المادة ازلية شخصية .

هؤلاء الحسيون يستندون في انكار الالٰه بانه ليس في متناول الحس والعلوم التجريبية ، وما لا يصدقه العلـم فمن الجهل أن تؤمن بوجوده .. كأن الحس هو الوسيلـة الوحيدة لادراكات الانسان دون سواه ، فالانسان عندهم حيوان لا يملك الا الحس !

**الـواقعيـة :**

ولكن المادية وبالأحرى المثالية السوفياتية ليست بالفكرة التي تتفاعل مع الواقع ، وانما هي الواقعية الميتافيزيقية اذ

تتفاعل مع الواقع تماما ، حيث نجند العقل والفطرة والعلوم العقلية والتجريبية للكشف عن الواقع ، نجد انالكون من اجناد فكرة الإله ، رغم التفكيرات الالحادية التي تزعم ان الواقعية رجعية لا تتلاءم والعلم [1] ولا نجد في الفكرة الالحادية دوافع لها الا قصورها عن درك الواقع كما يجب، وقصورها في فهم التجرد والحدوث • وقد يصح ان نعبر عنه بالقصور العامد ، اذ هم لا يريدون ليحصروا انفسهم في حدود التكاليف الإلهية ، ويهدفون من وراء انكار الإله التحلل عما تفرضه فكرة الإله •

ونضيف الى كل ذلك الظروف السياسية المستبدة التي ترمي الى شيوع الالحاد ومحاربة الايمان •

والمنظمات والبيئات الكنسية المسيحية التي تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في اله هو على صورة الانسان مثلث الاقانيم • صلب بايدي عباده ضحية لذنوبهم •

والكلمة الجامعة للواقعيين ان العلم في كافة مجالاته العقلية والتجريبية يعيش مع فكرة الإله ، لو تحلل عن التعصبات العارمة العمياء ، بالرغم من ان العلوم التجريبية

---

(١) راجع ص ٣٠ ـ ٤١ حوار بين الالهيين والماديين .

لا تقصد منها الا الفحص عن خبايا الطبيعة ، دون ان تهدف حل مشكلة النشأة الاولى ، فانها تجر الانسان بطبيعة الحال الى فكرة الإله ، لو لم تمنعها موانع شهوانية واضرابها من تخلفات عن نجد الصواب •

**فكـرة الالـه طـوال التاريـخ :**

ان الانسان بحكم الفطرة لا يستطيع ان يتحلل عـن فكرة : « طاقة جبارة فوقه » وان يستغني عما سواه اطلاقا، لما يرى من التحكمات المتواردة عليه رغم مـا يفكر ومـا يريد •

فهو اما ان يفكر في المادة لا سواها ، فيراها انهـا الطاقة الجبارة الوحيدة في الكون دون سواها ، كالماديـين والدهريين ، الذين يعيشون هذه الفكرة الالحادية طوال التاريخ •

او يفكر في ان هذه الطاقة ليست الا في البعض مـن صور المادة فيعتبر هذا البعض إلهاً وآلهة ، اصيلة في الالوهية او خلفاء عن الإله الاصيل •

أو يفكر في ان الطاقة الأزلية والأبدية تختص بالإله المجرد عن المادة •

ثم هؤلاء بين من يجرده عن كل المشابهات والحاجات المادية ، وهؤلاء هم الإلهيون الحقيقيون .

أم يجرده من الازل ثم يعتبره حالا في الجسد بعد الازل ، في جسم عبد من عبيده ، او في الكل، حسب مختلف مراتبهم في الكمال ، كالحلولية ومنهم طوائف من النصارى.

أم يعتبره مجردا حال انه جسم ، وموجودا حال انه معدوم ، وقد نسب الاخير الى الباطنية القائلين : ان الله منزه عن مشابهة المخلوقات ... ولو كان موجودا لأشبه المخلوقات ، ولو كان معدوما لاشبه المعدومات ... فهو لا موجود ولا معدوم .

فكما ان المثالية السوفسطائية والمادية فكرة خرافية لا تتفاعل مع الواقع الخارجي ، كذلك فكرة الإله في الكثير ممن يعتنقونها ، لانها بين خلع الاله عن الوهيته ، واشراك لغيره في الالوهية ، وتمثيل له بخلقه فيما تستلزمه الخلقة.. وكل هذه الخرافات والرجعيات الفكرية بشرية اطلاقا ، وانما فكرة الإله ــ الخالصة عن الخرافات ــ انما هي من رجالات الوحي .

فالديانات المقدسة الإلهية تعطي للعقل السيادة والأصالة

في التفكير ، وترشدها الى الواقع كما يجب ، اذا فهي متفاعلة مع العقول والافكار المتفاعلة مع الواقع ،تفاعلة في الفلسفات والسياسات والاقتصاديات ، اعتبارا انها ( الديانات ) أئمة للافكار في هذه التفاعلات ، دون تجبر عليها وتهكم ، انما ارشاد الى ما قد تخفى على العقول من الواقعيات ، في الواقع الخارجي وفيما تتطلبه الحياة الانسانية في تقدمها نحو الكمال .

اذا فهناك تفاعل جذري واقعي بين الدين والعقل والحس الى فكرة الإله : رغم هؤلاء الدينيين الذين يتحللون احيانا عن حكم العقل لواقع المنافات بينهما ، كالمسيحيين.

ورغم العقليين الذين يتحللون احيانا عن الدين ، زعم ان العقل قد يتنافى مع الدين اولا يؤيده .

ورغم الحسيين الذين لا يصدقون واقعية الا في حدود تصديق الحس المباشر .

**سيادة الدين أو العقل او الحس :**

فانما خطأ العقليين ينحصر في اعتبارهم الدين المحرف الهيا ، كخطأ العقليين الذين يعطون للعقل السيادة المستقلة دون حاجة له الى ارشاد من فوق العقل .

وخطأ الحسيين حصرهم وسائل الادراك في الحس.

وحصرهم الواقع في المحسوس • وهم في الحق لا يعتبرون الانسان الا حيوانا ، يحرمونه عن الادراكات غير الحسية التي يمتاز بها الانسان عن سائر الحيوان •

والدينيون الحقيقيون ، يعطون السيادة للدين وللعقل والحس جميعا ، اعتبارا ان الدين بتعاليمه النيرة إمام الاخرين يرشدها عن الاخطاء التي تعرض العقول والحواس •

**الصراع بين الدين والعقل والحس في تاريخ الفكر الاوربي :**

لقد مضت على التفكير الاوروبي منذ القرن الرابع عشر حتى الان مراحل شهدت فيها العقلية الاوروبية صراعا فكريا عجيبا واتجاهات عقلية مختلفة تدور حول تبرير مصادر المعرفة التي عرفتها البشرية طوال تاريخهاحتىالوقت الحاضر ، وهي الدين والعقل والحس • وفي كل مرحلة من هذه المراحل نشأ سؤال عن قيمة أي واحد من هذه الثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة ثم يكون الجواب ايجابيا أو سلبيا •

ورغم ان هذا الصراع لا يخص التفكير الاوروبي ، فانه يسود التاريخ في مختلف عصوره ، فاننا نستعرض الان

عرضا من اهم ادوار التاريخ في هكذا صراع ونبرهن انه لم يكن صراعا واقعيا بين الدين الواقعي والعقل والحس الصحيحين ، انما بين الدين المحرف والعقل المدخـول . والحس الحيواني غير المنطلق .

**سيـادة الـديـن :**

كان الدين سائدا طوال القرون الوسطى في توجيـه الانسان في سلوكه وتنظيم جماعته ، وفي فهمه لواقعه وواقع الحياتين .

والبابوية كنظام كنسي ركز السلطة العليا باسم الله في يد البابا . وسوى الاعتبار بين نص الكتاب المقدس ورأي الكنيسة ، ترجيحا للثاني على الاول عنـد الاختـلاف ، اعتبارا انه يوحى الى الكنيسة بعد وحي الانجيل ما يحق لها أن تنسخ حكم الكتاب ، وجعل عقيدة التثليث أصـلا تبنى عليه المسيحية ، كما جعل الاعتراف بالخطأ وصكوك الغفران من رسوم العبادة .. كل ذلك مضافا الى الجمود والتأخر والى ما يناقض العقل والحس في كلا المصدرين : الكتاب المقدس والكنيسة [1] .

---

(١) راجع كتابنا « عقائدنا » من ص ٢٠٨ .

استمرت سيادة الدين حتى قام ( مارتن لوثر ) في القرن الخامس عشر ، فكافح ( على حد تعبيره ) تعاليم الشيطان ــ يقصد بها الكنيسة ــ وجعل الاصل الكتاب المقدس ، وانه نفسه مصدر الحقيقة فيما يتصل بالايمان ثم جعل هكذا ايمان مقدما على العقل والطبيعة .

وجاء بعده ( كالفين ) وأقر لوثر على اصله ، واستثنى تفسيرات الكتاب المقدس ، وعلى اثر هاتين الحركتين الاصلاحيتين تعرضت المسيحية للجدل الفكري واصبحت موضوعا للنقاش العقلي والمذاهب الفلسفية ، واخيرا اعتبر الدين ( المسيحية ) فوق العقل فلا يسمح للعقل النقاش فيه، حفاظا على كرامته اذ رأوه يتنافى والعقل ! [1] .

**سيادة العقل :**

لقد استمر اعتبار الدين ( المسيحي ) كمرجع اخير للمعرفة بين معتنقيه الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو عصر التنوير في تاريخ الفلسفة الاوروبية ، وله طابعه المشترك في الفكر : الالماني والانجليزي والفرنسي ــ من : ولف ولوك وفولتير ــ وطابعه الفكري الذي يتميز به : نمو شعور العقل واحساسه بنفسه ، وبقدرته على ان

---

(١) راجع كتابنا « عقائدنا » من ص ٦٥ .

يأخذ مصير مستقبل الانسانية في يده بعد ان يزيل كل عبودية ورثها من قبل ، والتحلل عن التقاليد الجاهلة الجامدة المنافية لحكم العقل وتقدم العقل .

فللعقل في نظر العقليين ـ اصحاب عصر التنوير ـ الحق في الاشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون ودين .

وكما يسمى هذا العصر بـ : « عصر التنوير » يسمى أيضا بـ « العصر الانساني والعصر الايماني الفلسفي ، بإله لا يوحي انما هو خالق للعالم » .

فالتنوير لا يقصد به الا إبعاد الدين عن مجال التوجيه واحلال العقل محله فيه ، بالرغم من أنه كان في كل من العصرين أنصار لما رفضه طائفة من العلماء ، من الدين أو العقل .

وان دوافع هذا الصراع وتبديل السيادة هي الظروف السيئة التي أقامتها الكنيسة والكتب المقدسة المحرفة ، في الحياة الاوربية ، سواء في مجال التوجيه والبحث ، او في مجال السياسة ، ا و في نطاق العقيدة والايمان .

فقد تبين ان زوال سيادة الدين وحلول العقل محله لم يكن الا ان الدين السائد بين هؤلاء لم يكن خالص الوحي الالهي ، فعلى حسب الخرافات الدخيلة فيه حورب حتى حل محله العقل ، لانه كان منافيا للعقل .

اذاً فالعقل لا يباين الدين الالهي الصادر عن الوحي الخالص ، بل ويؤيده ويستعين به ، كما العقل يؤيد فكرة الإله وهو من خدامها ، وانما يباين غير المعقول من الدين الذي ليس الا من تحريف المحرفين المبطلين .

فاما الدين الاسلامي المحرك للعقل والعقلاء نحو التفكير الدائم والتفاعل مع الواقع ، فلا يحل محله العقل ليبطله او يحكم عليه بل سيبقى سيدا وسائدا مر الدهور ، كلما تقدم العقل تقدم في السيادة أكثر وأكثر .

**سيادة الحس ومذهب الوضعية :**

انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر ، وحلت سيادة الطبيعة محل السيادتين : الدينية والعقلية ، وتقدر هذه الفلسفة الطبيعية ، لا كمصدر مستقل فحسب للمعرفة ، بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية او المعرفة الحقة ، وأن الطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في عقل الانسان ، لا وحي الدين ولا فلسفات العقل المتحللة عن الطبيعة ، فهي وحدها التي تكوّن عقلية الانسان ، فكل ما يأتي من « ما وراء الطبيعة » خداع للحقيقة ! وكذا ما يتصور العقل المجرد من نفسه ، هذا وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة ايضا .

وبصيغة موجزة : كلما يوحى الى العقل من نفسه او

مما وراء الطبيعة ، انه وهم وخيـال لا يملك من مقومـات الحقيقة شيئا ، وكلما يوحي اليه من طبيعـة الكـون ، وما يستلهمه منها ، هو حق .

فعقل الانسان في الفلسفة الحسية وليد الطبيعـة في المعرفة ، كما هو وليدها في الخلقة ، وهذا هو العقل والفكر المتفاعل مع الواقع في نظر الحسيين ، لا الفكرة الدينيـة او العقلية المجردة .

الا أن الحق المعقول والمحسوس سيادة الدين الالهي غير الخرافي ، المتمثل المتجمع في شريعة الاسلام والقرآن ، اذ انه يجعل المراد للعلم الالهي الذي يصدقه الحس والعقل، ويأمر البشر أن يستوحي من الآيات الافاقيـة ( الحسيـة والعقلية ) وكذلك الآيات الانفسية ، مستوحيـا في التجنب عن الاخطاء وفي التقدم المتواصل ، من الوحي الالهـي : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » .

وبذلك نعلم أن التحلل عن الدين ، ثم عن العقل الى سيادة الطبيعة، ليس يعني الا الاديان غير الالهية او الالهية المحرفة التي تكذبها العقل والحس قليـلا او كثيرا ، كمـا لا يعني الا العقـول الدخيلة المقبورة في قبور الحيونـات والحسيـات .

**مــن مقــالات الحسيين :**

ومما يقوله الحسيون :

ان الطبيعة هي التي تنطق عن نفسها ، وعلى الانسان أن يعتمــد منطقها دون سواهــا ، سواء منطــق الالهيين او العقليين، فالطبيعة هي التي يخط الطريق المستقيم فيحياة الانسان ، وهؤلاء يرون ان الديــن مخدر وكمــا يقــول « ماركس » .

**تــاريــخ المعــرفــة :**

وخلاصة القول هنا أنه كانت معرفــة الانسان قبــل تفلسف الاغريقي ذات طابع ديني ، ثم أصبحت على عهــد سقراط وأفلاطون من فلسفة اليونان : عقلية ، ثم مالت بعد ذلك على عهد أرسطو الى التجربة والواقع، ثم ابتدأتدورة أخرى من جديد .. فاعتبر الدين في القرون الوسطىمصدرا للمعرفة ، ثم جعل للعقل اعتباره بدلا من الديــن في عصر التنوير فيالقرن الثامن عشر ، ثم قوي الميــل الى اعتبــار المعرفة الحسية او الوضعية وحدها دون العقل والدين معــا في القرن التاسع عشر ، وهذه دورة ثلاثية لاعتبار المعرفة ، فلسفيــا .

هذا ، ولكن النظر المطلق المتحلل عن التعصبات المادية الشهوانية ، يعطي الحق للدين وحــده : الديــن الالهــي

الخالص المتفاعل مع العقل والواقع تماما ، المستخدم عقلية الانسان وواقع الحياة لتنظيم أسس الحياة ، دون أن يشذ عن حكم العقل ـ بل ويرشده ـ ودون أن يتخلف عن واقع الكون وما تتطلبه الحياة الانسانية .

ومما يوحيه الدين الحق : ان على الانسان ان يستوحي من ذاته ، من فطرته وعقله ، وأن يستوحي ويستمد من خارج ذاته : من واقع الكون ، وان يستوحي من الله خالق الكون ، ليصلح أخطائه في الوحيين غير الالهيين، وليواصل في طريقه الى الكمال المطلوب للانسان .

**اصالة المادة :**

وفي الحق ان الحسين يرون فرض تبعية العقل للمادة، وهذا هو أساس رئيسي في تعاليم الماركسية ، وهو يلعب دورا قويا في الصراع بينها وبين الدين .

ماركس هو الفيلسوف الذي أثر تأثيرا كبيرا في انتصار البحث الطبيعي الواقعي على الميتافيزيقيا ، وآرائه مع انجلز تعتبر دستور الماركسية فيما يسمى بالاشتراكية الجماعية او الشيوعية والبلشفية .

**قيمة الماركسية كمذهب فلسفي :**

ان الماركسية ليست مذهبا جديدا في التاريخ الفلسفي بين الفكر الفلسفية، انما هي امتداد للصراع بين

الطبيعـة والحس من جانب ، وبين الدين والميتافيزيقا من جانب آخر .

انها صراع فكري بين الله والعقل من جانب ، وبينه وبين المادة من جانبٍ آخر .

هي صراع بين قيمة الانسان والحياة الانسانية وبـين سواه من حيوان وحياة حسية وحيوانية ، وهي أخيرا صراع بين حرية الانسان في ان يتصور ، وفي أن يوجه الطبيعـة ويرتفع بقوته البشرية فوق قوتها المادية وبين جبر الطبيعة للانسان وأملائها عليه تكوينها الخـاص وتوجيهها المعنـي وهدفها الذي لا ينفك عنه في حياته .

ان الصراع بين هذين قديم منذ وجد الدين وقبل ان تتكون الميتافيزيقا كعلم ، وقبل ان يوجد « كارل ماركس » واضرابه الجدد ، انه قديم منذ ان اعتقد الانسان في اللـه والشيطان معا ، ثم أخذ ألوانا شتى وأسماء مختلفة الى أن وصل الى ماركس في القرن التاسع عشر .

وصراع الدين مع الماركسية صراع اوربـي أنتجتـه العقلية الاوروبية وحدها ، فهو يمثـل حلقـات العقليـة الاوروبية ، وان التفكير الاوروبي منذ النهضة الاوروبيـة التي استغرقت القرنين الخامس عشر في فلورنس والسادس عشر في روما ، حتـى وقت هذا الصراع الماركسي ، هـو محاولة للاجابة عن الاسئلة التالية :

- ما قيمة النص او الدين في التوجيه والمعرفة •
- ما قيمة العقل او المثالية في التوجيه والمعرفة ؟
- ما قيمة الحس والواقع في التوجيه والمعرفة ؟

**ملاحظـات على الماركسيـة :**

١ ــ تصف الماركسية فكـرة الالـه الميتافيزيقية: « الدين » بأنها خرافة مخدِّرة ، لانها تدعو الى تأليه غـير المحدود وغير المحسوس في الوجود ، وهي نفسه تقف عند المحدود والمحسوس ، وبأن الدين يدعو الى تقديس علـة عامة للوجود وراء الحس ، وهي تنكر وراء الحس اذ يحصر الموجود في المحسوس •

وبأنه يدعو الى القيم الاخلاقية «والمثل العليا» الثابتة، وهي لا ترى ثباتا لشيء على الاطلاق ، كما لا ترى قيمـا ولا مثلا فيما عدا ما يوحي اليه الحس وما يقدمه للانسان من متع حسية ، ومما يسد به حاجة بدنه فحسب ، اذ المتـع العقلية عندهـا ظواهر او صدى للمتع الحسيـة ولعلاقات الانسان الطبيعية التي يعيش فيها •

والماركسية لا تعيب الدين لانه يدعـو الى الاعتقـاد والايمان ، لانها نفسها تدعو ايضا الى الاعتقاد والايمان ، وتحمل في عنف واصرار ــ لا عن اقتناع ــ على تقديس ما

تراه أهلا للتقديس والعبادة ، انها تدعو الى عبادة «الدولة» وتدعو الى الصلوة في محراب العلوم التجريبية ، وتضفي على الحزب الشيوعي ورئاسة هذا الحزب لونا سميكا من القداسة والعصمة ، ولا تسمح للمناقشة في أفكارها ونظمها، كأنها الله !

انها تدعو الى ايمان وعبادة معبودها هو الدولة ، وتدعو لذلك عن طريق الفلسفة ، فهي وثنية باسم الفكر ، وفي نفس الوقت معبود وهمي لا وجود له الا في التصور الذهني •

فانما الاختلاف بين الفكرين والعبادتين اختلاف المعبودين بمختلف ألوان العبادة ونظمها !

٢ ــ تعيب الماركسية القيم الاخلاقية وان يكون هناك اعتبار عام للمقاييس الاخلاقية ، تعيبها لمنافاتها مبدأ النقيض والتطور ، فلا اخلاقية ثابتة اطلاقا عندها ، فان الاخلاق كسائر الكون ، تختلف حسب اختلاف وتقدم الانسان •

فالدعوة الى الحيوانية في علاقة الجنسين بعضهما ببعض قد تكون مبدأ اخلاقيا عندما يرضاها المجتمع ، رغم أنها قد تتنافى الاخلاق قبل زمن أو في جماعة آخرين •

ونظام تبني الدولة للاولاد الشرعيين وغير الشرعيين على السواء قد يكون نظاما اخلاقيا اذا اعتبره نظاما اجتماعيا •

ورقّ الفرد في خدمة الاجتماع والدولة اخلاقي اذا فرضه المجتمع ، فالماركسية كما لا تؤمن باله واحد مطلق ، كذلك لا تؤمن بمبدأ الاخلاق الثابت المطلق ، فالكون في الماركسية كله تبدّل وتناقض التطور .

وعلى الماركسية ألا تؤمن بنظامها لانها أيضا من الكون المتطور ، فكيف تبني أساس حياتها على نفسها كأنها ثابتة معصومة لا تتغير !

وعليها ـ حسب مبدأ النقيض ـ ان تحكم بصحة وفساد مبدأ ما لزمن واحد ، لانهما في اعتبارها اعتبارية متطورة ، وفي نفس الوقت لانها لا تحيل اجتماع النقيضين.

٣ ـ ان الفلسفة الماركسية ، فوق أنها جملة من المتناقضات ، انها دعوة الى انتكاس الانسان وليس الى تقدمها الا في الحيونات والماديات .

انها عود بالانسان الى الرق ، وعود بالفكر والايمان الى الجبر ، وعود بالانسانية الى الوثنية ، وعود بالاخلاق والقيم الى الانطلاق في الحيوانية .

ان البطن هو الوسيلة والغاية معا في الماركسية وليست غيرها .

اذا فالفكرة الماركسية رجعية خرافية تماما ، ترجع الى القرون الاولى من عبادة الاوثان وأشر منها « عبادة

الطواغيت » التي طغت على الله وادعت الالوهية من دون الله ، ثم تفعل كل عملية شريرة وتدعو الى الاباحية المطلقة ، حال ان الاوثان في قرونها لم تكن لتأمر بشيء او تنهي عن شيء ، انما كانت تصد عن عبادة الله فقط، ولكن الطواغيت أشر وأطغى لانها تأمر وتنهي ولا تقف في عصيانها لله على حـد .

وفكرة الاله الواحد ــ المجرد عن حـدود الزمـان والمكان والمادة ــ هذه فكرة تقدمية تحملها أعقل الانسان في التاريخ وهم الأنبياء (ع) ، وهي تتفاعـل مع العقـل المتفاعل مع الواقع وما تحتاجه الحياة الانسانية تفاعلا تاما يرجع الى صالح الانسان .

**الجـولـة الـرابعـة :**

ومن أجل ان الماركسية خرافة وبربرية ، نرى الجولة الرابعة من جولات التفكير الاوروبي هي جولة الخصومة العنيفة للفكر الماركسي ، قبيل بداية القرن العشرين ومنـذ بدايته حتى الآن .

وخصوم هذا الفكر ما بين مؤيد للعقـل وقيمته ، او مؤكد لصحة الوحي وحاجة الانسان الى الايمان بالله .

وممن دخـل في هذا الميـدان الفيلسوف الدينماركي كيركجارد Kierkegaard صاحب فلسفة « الصلة بـين

العلم والايمان » والفيلسوف الفرنسي « برجسون » زعيم المذهب الروحي في الفلسفة المعاصرة ، والفيلسوف الالماني « هيدجر » صاحب فلسفة الوجـود الزماني ، و « شيلر » الفيلسوف الالماني في القرن العشرين ، يعتبر في قمة هؤلاء الفلاسفة الذين كشفـوا عن تهـافت الماركسية خاصـة ، وفلسفته تقوم على الصلة بين الفكر الديني والميتافيزيقـي والعلمي ، وبين الحياة الاجتماعية والعلميـة والسياسيـة والاقتصادية ، كما تقـوم أيضا على توضيـح ان القيـم الاخلاقية هي حقائق ثابتة .

**الـوان الفكـر الفلسفيـة :**

هنا نعود الى البدء ونختصر الفكر الفلسفية في :

١ ــ مثالية وهمية : سوفسطائية .
٢ ــ مثالية عقلية : اصالة وسيادة العقل .
٣ ــ دينيـة : اصالة وسيادة الدين .
٤ ــ حسية : اصالة الحس والمادة .

و العقل الذي هو الحاكم بكل ذلك ــ مهما أصـاب أو أخطأ ــ انه هنا يخطىء المثالية الوهمية كما بيناه سابقا ، ويخطىء كذلك استقلال العقل وسيادته التامة ، لما يرى من أخطائه الشخصية ، ولا أقل من خطأ بعض العقـلاء لولا الكل ، ويخطىء اصالة المادة ، اذ هي تنكر العقـل كمبـدأ

أولي « انكار غير المحسوس » وهو كذلك غير محسوس فالعقل حفاظا على حده ينكر استقلاله نفسه ، وحفاظا على كيانه ينكر أصالة المحسوس ولانه ذاته من غير المحسوس • ويخطىء أصالة وسيادة الدين غير الالهي الدخيل المحرف ، للمنافاة بين العقل وبعض المبادىء في الاديان غير الاسلامية ولانها خلاف المحسوس من الكون أحيانا •

وأخيرا يلجأ الى تخصيص السيادة بشريعة القرآن كشريعة تؤيد العقل وتقدمه نحو الكمال والحضارة ، كما العقل يؤيدها تأييدا لما يستوحي منه هدايته الى ما يخفى عليه ، والى التقدم •

والحس أيضا مع العقل وبحكم العقل والفطرة ينادي بعدم لياقته للامامة والسيادة ، لكثرة الاخطاء فيه أيضا كالعقل ، وهو يحكم ــ لا محالة ــ بوجود اله وراء الحس والمحسوس •

والعلم ــ على تقدمه البارع ــ لا يرى بدا من الاعتقاد بوجود مبدأ أزلي عليم خلق هذه القوانين العلمية في الكون •

فان شريعة القرآن تستخدم الفطرة والعقل والعلم والحس ، وكل ذلك حجة على امامتها وسيادتها المنحصرة بين الأئمة والسادة المزعومة •

فهي لا تنكر شيئا من هذه ، انما تخطئها في أخطائها، وتصدقها وتقدمها في نجاحهـا وصوابهـا ، وتعيّشها في مختلف الحيـاة !

**تقسيـم آخـر للفكـر الفلسفـي :**

نرى طوال التاريخ أفكارا متناقضة ومختلفـة عـن الكـون :

١ ــ بين من لا يرى للكون واقعا وانما كله خيـال كـ « سيرجيمس جينز » وهم المثاليون السوفسطائيون كما مضى .

٢ ــ ومن يرى له واقعا وان أصله الموجود المجـرد ورائه ، الازلي الابدي الذي لا شريك له ، وهم الموحدون.

٣ ــ ومن يحصر الكون في المادة دون أن يفكر فيما ورائها الا انه عدم وخيال وخرافة ، وهم الدهريون الماديون والحسيون .

٤ ــ ومن يرى ان للكون الها وآلهـة يمثلونه في تدبير العالم وكالة عنه ونيابة ، وهم المشركون .

٥ ــ ومن يرى ان هناك الهين اثنين متكافحين : اله الخير واله الشر .

٦ ــ ومن مثلث لأقانيم الاله على وحدتها ! « توحيد التثليث » وهم المثلثون المسيحيون وسواهم .

٧ ــ ومن قائل بوحدة حقيقيــة الوجــود وكثــرة الموجود ، كالفحلويين من الفلاسفة ، او وحدتهما كبعض الصوفية ، او الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة كجمع من العرفاء .

٨ ــ ومن موحد بجسمه تعالى كالمجسمــة وبعض فرق النصارى .

٩ ــ ومن مشرك له في العبودية فقط موحــد له في سائر شؤون الالوهية .

١٠ ــ ومن مشرك له في الأزليــة دون سواها من شؤون الالوهية .

١١ ــ ومن منزه له عن كل شرك الا زيادة الصفات على الذات .

١٢ ــ ومن مشرك له في الخلق منزّه اياه عن سواه من شؤون الالوهية ومن ... [1] .

وقد يصح القول ان الافكار الفلسفية بالنسبة للكون لا تحد ولا تحصر ، ونحن نبحث عنها في تقسيم اولي موجز كالتالي :

١ ــ السوفسطائيين .

---

(١) راجع كتابنا « حوار » : فصل التوحيد .

٢ ــ الموحديــن .
٣ ــ المشركين .
٤ ــ الماديين .

وقد بحثنا في نبذ من عقائــد هؤلاء الاربعــة سوى المشركين ، فاليكم بيان صنــوف المشركين ونعني بهــم غير الموحدين الحقيقيين :

**آلهــة المصريين :**

كان عند المصريين آلهة عدة ، ويرجع تعدد الآلهة الى الفترة التي سبقت وحدة شطري مصر ، فقــد انقسمت اذ ذاك الى مقاطعات ، كل منها تنصرف الى عبادة اله خاص ، هكذا برزت عبادة الاله « سيت » المتمثــل في الافعــى ، وعبادة الاله « هوروس » المتمثل بالصقر .

وأحاط الملوك أنفسهم بهالة من القدسية فتسموا خدام الاله « هوروس » واعتبروا انصاف الآلهة ، وفيما بعــد اعتبر الفرعون نفسه الها واشتهــر في كل مدينة اله معــين ومنهم « فتاح » في منف و « توت » اله الفكر و « هاتور » اله السماء .

اكّه المصريون كثيرا من الحيوانات . وهذا ناتج عن الخوف من القوى الكامنة فيها كالافعــى في الصحــراء والتمساح في النيل .

فصفة الالوهية هي اذا للقوة المتمثلة في الحيوان وفي النبات أحيانا ــ لا للحيوان او النبات بحد ذاته .

وكثيرا ما تتوصل مدينة الى فرض الهها على سائر المدن ، فاتتشار عبادة الاله رهن سطوة عبادها ومدى نفوذهم .

لم يتردد المصريون في الاقتباس عن جيرانهم ، فمثلا على ذلك عبادة الاله « رع » اله الشمس ، واسمه أيضا « أمون » ثم اقترن الاسمان فأضحى الاله « أمون ــ رع » ومع ثورة الفرعون « امنحوتب الرابع » أصبح اسم الاله الشمس « أتون » واتخذ الفرعون لنفسه اسم « اختاتون » ولفظة « اتون » تحريف مصري لكلمة « ادون » السامية ومعناها السيد ومنها اشتق اسم « ادونيس » وثورة « اختاتون » الدينية هزت بلاد الفراعنة من أقصاها الى أقصاها ، فقد انتهكت حرمة آلهة الاقدمين وفرضت الها واحدا دون سواه : هو الاله « أتون » أي الشمس ــ الا أن هذه الثورة لم تدم طويلا ــ فمع موت « اختاتون » حصلت ردة فعل قوية وأعاد « توت عنج أمون » خليفة « امنحوتب » الرابع ( او امينوفيس الرابع ) الاعتبار الى الآلهة القديمة .

**آلهة بين النهرين :**

قدس السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها ثم طووا

معتقداتهم فعبدوا القوى الكامنة وراءهـا كحرارة الشمس في بلاد حارة كالعراق ، او قوة المياه عند فيضانها او الطوفان أحيانا ، ثم جعلوا الآلهة على صورة البشر ، يتصفون بالقوة والضعف ، لهم الحسنات وفيهم السيئات .

وقد تعددت آلهتهم بتعدد المدن والغلبة لاله المدينة القوية التي كانت تفرض الهها على سائر المدن وما أكثرهـا في بلاد « سومر » وتنتهي الصدارة الى اله المدينة المنتصرة، لذلك جعلوا « مردوخ » ــ اله بابل عاصمتهم ــ في مقدمتها جميعا ، ومرجع ذلك الى نفوذ حمورابي ، فنفوذ الاله اذا هو نفوذ الدولة .

ومردوخ ابن « ايا » اله المياه الجوفية ، وتختصر فيه صفات الآلهة جميعا ، لانه خلصها من خطر أحدق بهـا ، وتحلى بكل مزاياها فكانت له المرتبة الاولى .

حصر السومريون آلهتهـم في مجموعتين : الثـالوث الاول ويتألفمن « آنو » اله السماء و « انليل » الهالارض و « ايا » اله المياه الجوفية ، فجمعوا بذلك بين عناصر الماء الثلاثة السائل والهواء والجماد .

والثالوث الثاني يتألف من « شمش » اله الشمس و « سين » اله القمر و « آدد » الذي يجمع كل عنـاصر الطبيعـة .

**آلهـة الفـرس :**

تعبد الفرس الالـه « اهورا مزدا » وعرفـوا باسم « المزدية » واقتبسوا من بلاد ما بين النهرين الاعتقاد بوجود « الارواح » •

ان المزدية عبدوا في البدء مظاهر الطبيعـة ، كالنـار والنور والارض والهواء ، واهتموا بعنصري النار والنور اهتماما خاصا ، وأضافوا الى آلهتهم مترا ــ الهة الشمس ــ ثم انتقلـوا الى تثليث آخـر مركب مـن « اهورمزدا » « اهرمان » « مترات » •

**آلهـة الفينيقيين :**

تسمى الآلهة بالفينيقية « ألونيم » مفردها « ايل » أي « اله » ، وتسمى أيضا « بعاليم » مفردها « بعل » وأشهر آلهتهم كالتالي :

« ايل » يعني الاله وهو عندهم كبير الآلهة او الاله الاب • « الداعون » عنوا به الها معينا لعله الاله « أدد » وهو من آلهة السومريين ، وهذا الالـه يختص بالجبـال والعواصف والصواعق ، وكذلك بالمطر ، العواصف المسيئة والمطر النافع ، وفيما بعد تكاثرت تسمية بعل مقرونة باسم المكان فقيل : بعل صور ، وبعل ارواد ، وبعل مرقد في بيت مري ، كما عبدت البعلات فقيل : بعلة بيروت وبعلة جبيل أي عشتروت •

« عليان » وهو ابن الاله بعل ، ورث عن أبيه كل صفاته ، اهتم بالينابيع والمطر والغلال ، وأخيرا بالبحر وخلط بينه وبين أبيه .

« عناة » وهي شقيقة عليان محاربة تجمع صفات الالهة عشتار ــ الآشورية ــ عبدها المصريون باسم انتا .

« موت » وهو الاله المحارب ابن بعل وشقيق عليان ونده في آن واحد معا ، ولا مجال للقاء بين موت وعليان ، فعندما يكون الاول في الجحيم يكون الآخر على وجه الارض ، وأصل هذه العقيدة ان الطبيعة عندما تزدهي في الربيع بفضل عليان يختفي موت ، وهو الصيف المحرق ، فيمثل هذا التنافس تعاقب فصول السنة وتأثيرها على الطبيعة .

« ملكارت » أي ملك المدينة ، هو اله الشمس أصلا، ولما نشطت الحياة البحرية في صور لقب باله البحر أيضا .

« رشف » ومعبده في جبيل ، به يتمثل البرق والضوء.

« اشمون » وهو اله صيدون ، اله الصحة ، انتقلت عبادته الى بيروت ، وتيمن به ملوك صيدون ، فتسموا باسمه .

« أدون » او « أدونيس الشاب » عبد في جبيل وفي افقا ، به يتمثل الخصب وتجدد الطبيعة في الربيع .

« البعلات » عبدت بعض المدن الاهات وأشيرا زوجة «ايل» كانت أولاها ، وعبدت بيروت «بعلة» لكن عشتروت بعلة جبيل والهة الخصب والجمال بزّتها جميعا ، فأقيم لها معبد في جبيل وضاع صيتها في كل فينيقيا والمستعمرات.

**آلهة الاغريق = اليونان**

ميزت الميتولوجيا الاغريقية بين الآلهة والابطال وجعلتهم على مراتب :

فثمة آلهة الاولمب وآلهة البحر وآلهة الارض وجوفها، والاولمب هو أعلى جبال اليونان وبالتالي عرش « زفس » ملك الآلهة ، وقد اقتسم « زفس » العالم مع اخوته ، فكانت السماء من نصيبه والبحار من نصيب أخيه « بوسيدون » وباطن الارض من نصيب « هيديز » واليكم أسماء البعض من آلهتهم :

**١ ـ آلهة الاولمب :**

آلهة الاولمب ـ وعلى رأسهم زفس اله السماء والرعد والصواعق والعواصف ـ تلازمه على الاولمب عائلته المؤلفة من زوجته وأبنائه الثلاثة وبناته الثلاث .

١ ـ « هيرا » زوجة زفس الشرعية وشقيقته صعبة المراس ، ولكنها مثال ربة العائلة .

٢ ـ « اثينا » ابنة زفس ولدت من رأسه مدججة

بالسلاح ، الهة الحكمة والحرب والذكاء وشقيقة مدينة اثينا •

٣ ــ ارتميس وتمثل بالقمر لانها الهة النور الليلي الهة الصيد والغابات ، لم يترك لها شغفها بالحيوانات مجالا لحب الرجال •

٤ ــ ابولون ابن زفس واله الشمس والموسيقى والشعر ، سهام قوسه لا تخطىء •

٥ ــ هرمس اله المسافرين والتجار ، رسول زفس وسيد الرياضيين ولدت له « أفروديت » ولدا خنثى سمياه « هرما فروديت » •

٦ ــ اريس اله الحرب وعشيق افروديت •

٧ ــ افروديت الهة الحب والجمال ــ خلقت من زبد البحر ــ زواجها غير موفق فتصرفت حسب أهوائها •

٨ ــ هيفايستوس ابن زفس ــ ألقى به أبوه من أعلى جبل الاولمب في احدى ساعات غضبه فأضحى أعرج • اله الحدادين وزوج غير كفؤ لافروديت •

ب ــ آلهة البحر وعلى رأسهم « بوسيدون » شقيق زفس تنفتح أمامه أبواب البحار • عربته وخيله البيضاء تثير زبد البحر ، يعصف في الاصداف فيدوي صوت المرج •

ج ــ آلهة الارض وجوفها :

١ ــ « هيديز » شقيق زفس يحكم على جوف الارض وعالم الاموات .

٢ ــ « ديستر » شقيقة زفس والهة الزرع والثمار. فيها تتمثل الارض الام .

٣ ــ « ديونيسوس » الهة الخمر ، قتل في الاولمب في آخر أيامه . تحتفل النساء في عيده بالسكر والنشوة .

فآلهة اليونان صورة مكبرة عن الانسان في شعورهم او في حاجاتهم ، فهم يحبون او يحقدون او يتألمون ، وليسوا كآلهة الشرق ( مصر وما بين النهرين ) عالمين بكل شيء وقادرين على كل شيء ولكنهم يمتازون عن البشر بكونهم خالدين ، وحياتهم مآدب متواصلة من الكوثر والشهد وأجسادهم هي المثال الاعلى في الجمال .

والملاحظ ان الاغريق ابتعدوا عن تأليه الحيوانات وأخضعوا آلهتهم لنظام البشر فجعلوهم على مراتب يرأسهم زفس ، عاجزين عن تبديل مصير البشر ، بل هم أنفسهم مسيَّرون حسب حتمية تستبد بهم ومن هنا التفاوت في مراتب الالوهية والقداسة بين آلهة الشرق وآلهة الاغريق وهو تفاوت عائد لذهنية الشعبين قبل كل شيء .

**آلهة العرب :**

قامت الوثنية في العرب على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة

وكانت بعض كبريات القبائل تعبد أصناما معينة عرفت بالاصنام الخاصة وزاد عددها على الثلاثمائة أهمها : ود ــ سواع ــ يعوق ــ يغوث ــ هبل ــ بعل ــ جهار .

أما الاصنام العامة التي تشترك في تقديسها معظم القبائل فكانت : اللات ــ والعزي ــ ومناة ــ والاولى عبارة عن صخرة مربعة في الطائف ترمز الى فصل الصيف ، بينما كانت الثانية عبارة عن ثلاث شجرات في وادي نخلة ترمز الى الخصب ، اما مناة فهي أقدم الاصنام عند العرب وهي عبارة عن حجر أسود أقيم له معبد خاص على الطريق بين مكة ويثرب وهي ترمز الى الموت والقضاء والقدر .

**آلهة الهنود :**

في البدء عبد الهنود قوى الطبيعة وعناصرها كالسماء والارض والشمس والنار والرياح والماء وقد شخصوا هذه العناصر فجعلوا السماء أبا ( فارونا ) والارض أما (بريتيفي) ولبث النار وهي الاله ( اغني ) لمدة طويلة أهم الآلهةالقديمة في الهند .

وكذلك عبدوا الحيوانات ومن أهمها الوهية البقرة وحتى الآن يعبدونها ويقدسونها .

**اضواء على عبادة الاوثان في اسبابها :**

١ ــ خوف البشر من القوى المكنونة في الطبيعة

ورجائه لرحماتها ونعمها ، وهذا الخوف والرجاء ، اضافة الى الجهل بحقيقة هذه القوى ومبدئها ، كان يدفع البشر الى الخضوع لمظاهر الطبيعة بما فيها من القوى الكامنة .

وهذه ثنوية تظهر في مختلف الاوثان الخيرة والشريرة، الممثلة لهذه القوات المرموزة كالسماء والارض والبحر .

او المتمثلة بهياكل كانوا ينحتونها فيعبدونها رمزا لعبادتهم لتلك القوى الكامنة في مختلف مجالات الطبيعة .

ثم تقدمت هذه الفكرة ان اعتقدوا في اله واحد هو اله الآلهة ، وانما هذه الاوثان تماثيل لشركاء هذا الاله . من القوات الكامنة في الطبيعة وهم بين :

١ ــ من أشرك الاوثان بالله في الخالقية والرزق .
٢ ــ ومن أشركها به في العبادة .

ثم تقدمت هذه أيضا ان اعتقدوا في اله واحد بيده ناصية كل شيء دون ان يكون له ولي من الذل او شريك في الملك او ند او ضد او معين في أي من شؤون الالوهية وحده لا شريك له .

ومن دوافع الشرك بالله طبيعة التحلل عن القوانين الالهية ، ولذلك كانوا يعبدون مالا يأمرهم ولا ينهاهم وهم بعد ذلك متدينون عابدون كمن يعبد الله ، والفرق تحلل المشركين عن عبء التكاليف الالهية ، وانما كانت عبادتهم

لاصنامهم حسب ما كانوا يشتهون ، فالاوثان كانت لعبة بأيديهم يفعلون بها ما يشاؤون .

والفلسفة التقدمية في فكرة الاله الواحد انما هي من رجالات الوحي الذين كانوا يواصلون في الدعوة الى عبادة الله والتجنب عن عبادة وتأليه غيره، سواء الطبيعة او البعض من مظاهرها .

والفلسفة المادية التي تدعو الى اصالة المادة هي اردء الفلسفات اذ تعمم الالوهية لكل الطاقات المادية ، وتخلف ويلات مختلف ألوان الوثنيات ، وتأليه المادة بصورة شاملة هو مرحلة الكمال لهذه الفلسفة .

والفلسفة الوثنية منقدمة على المادية في تخصيصها الالوهية بالبعض من قوى الطبيعة او تشريكها اياها بالله الذي تعتبره اله الآلهة .

والفلسفة الدينية الصحيحة متقدمة على كافةالفلسفات بشأن التعرف الى اله الكون .

اذ ان هذه الفكرة تتفاعل مع الكون أجمع ، سواء في ذلك فطرة الانسان وعقليته ، أم سائر الكون ، فباستطاعة الموحد أن يجند الكون بكافة مجالاته في اثبات فكرة الاله .

فكل تأخر في فلسفة الكون نجده من الخرافات

والاساطير التي اختلقه البشر غير المرتبط بالوحي تماما : من داخل ذاته : وحي العقل والفطرة ، ومن خـارج ذاتـه : وحي الله تعالى .

وقد نجد فلسفات مزيجة من وحي الانسان المتأخر ، ومن وحي الرحمان : كالتثنية والتثليث في ذات الله ، فـان الزائد على الاله الواحد ليس الا مـن وحـي الشيطـان ـ كاله الشر ـ وكاقنوم الابن وروح القدس .

فكل الانحرافات الجارفة في توحيد الاله الحقيقي ، نجد كلها من الاختلافات الوثنية وكما يشير اليه القرآن : ... « ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » ( ٩ : ٣٠ ) .

**الوثنيـات في مختلـف الوانهـا :**

**١ ـ التثليـث :**

... نجد كثيرا من النصارى يعتقدون في اله مثلـث الاقانيم ، وقد يعبرون عنه بتوحيـد التثليث جمعـا بـين المتناقضين ، رغم ان الديانات الالهيـة بعيـدة تمامـا عن التثليث ، فلا نجد نبيا يدعو الى أكثر من اله واحـد ، او يدعو الى نفسه كاله او جزء من الكيان الالهي !

رغم ذلك نرى كثيرا من النصارى يعتقدون في الثالوث الالهي وليس هذا الا من الذين كفروا من قبـل على حـد تعبير القرآن الكريم :

الثالوث في الوثنيات العتيقة :

نجد الثالوث في مختلف ألوانه وأسمائه وسماته طوال القرون الوثنية كالتالي :

١ ــ الثالوث البرهمي : « برهما ــ فشنو ــ سيفا » .

٢ ــ الثالوث البوظي : « فو » « بوظا » الــه واحــد مثلث الاقانيم .

٣ ــ الثالوث الصيني : ان أصل كل شيء واحد ، وهو خلق ثانيا ، ثم انبثق منه ثالث ، ومن الثلاثــة كــل شيء .

٤ ــ الثالوث الهندي .

٥ ــ الثالوث المصري : ان الاول خلق الثاني ، وهمــا خلقا الثالث ، وهم خلقوا العالم .

٦ ــ الثالوث اليوناني

٧ ــ الثالوث الفارسي : وهــم اورمزد ــ متــرات ــ أهرمــان .

٨ ــ الثالوث الفنلندي : اسمه « تريكلاف » وجــد لــه تمثال في (هوتونجربرج) له ثلاثــة رؤوس على جسد واحــد .

٩ ــ الثالوث الاسكندنافي : « أودين ــ تورا ــ فري »

١٠ ــ الثالوث الدردي والسيبري : « تولاك ــ فان ــ مــولا »

١١ ــ الثالوث الاقيانوسي .

١٢ ــ الثالوث المكسيكي : اسمه « تزكتليبوكا » ومعــه اقنومان « هوتزليبوشتكي » و « تلالوكا » .

١٣ ــ الثالوث الهندوس : « بزونا ــ باكاب ــ ايكيهيا » ويعتقدن صنما آخر اسمه « تنكاتنكا » ويقولون عن الثاني ايضا انه ثلاثة أقانيم اله واحد [١] .

.. لقد نرى كفاحا عاقلا علميا من رجالات الوحــي طوال القرون الرسالية بشأن تزييف عقيــدة التثنيــة [٢] والتثليث وما اليها من الخرافات في فكرة الاله ، ولولا هذه الدعوات المقدسة الصامدة لظلت البشرية منحرفة عن عقيدة التوحيد تماما .

---

(١) راجع كتابنا حوار وعقائدنا » تجد فيهما تفصيــل البحث حول الثالوث عقليا ونقليا .

(٢) راجع « حوار » باب التوحيد .

## المادية وأسسها

.. هنا نقف وقفة حاسمة مبرهنة مع الماديين الذين شملت دعاياتهم ارجاء المعمورة ، فقد نرى بعض الحسيين يدعون ان لهم براهين ألا اله للكون ، ثم لا نجد لهم اي برهان على ما يدعون ، الا شكوكا وشبهات واستبعادات لا تعارض البراهين القاطعة الساطعة على وجود الله . فنسبة الشك في شيء واليقين به نسبة اللااقتضاء الى الاقتضاء. ولا تنافي بينهما. والفرق هو القصور في وجدان شيء والبلوغ اليه ، ونحن الالهيين باستطاعتنا أن نخرجهم من ظلمات الشك الى نور اليقين .

ويقول القرآن : وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون ( ٤٥ : ٢٤ ) .

كما ويقر بذلك العلماء ومنهم العالم الفسيولوجي

اندروكونواي ايفي [1] في مقال له : « قد ينكر منكر وجود الله ولكنه لا يستطيع ان يؤكد انكاره بدليل ، واحيانا يشك الانسان في وجود شيء من الاشياء ولا بد في هذه الحالة ان يستند شكه الى اساس فكري ».

ولكنني لم اسمع ولم اقرأ في حياتي دليلا عقليا واحدا على عدم وجوده تعالى ، وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته ادلة كثيرة على وجوده ، كما لمست بنفسي بعض ما يتركه الايمان من حلاوة في نفوس المؤمنين وما يخلفه الالحاد من مرارة في نفوس الملحدين » .

ونحن نستعرض كافة براهينهم ــ ما قالوه وما يمكن ان يقولوه ــ في انكار وجود الله لكي نرى عقليتهم الفلسفية ونبرهن انهم لا يأتون بشيء متين .

حوار فلسفي مع الحسيين : الماديين ــ الشيوعيين ــ الماركسيين :

في الفكر الفلسفي :

---

(١) من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥ـ١٩٤٦ ــ رئيس قسم الدراسات الفسيولوجية والصيدلية بجامعة ثورث وسترن ــ استاذ في كلية الطب ووكيل الكلية في جامعة ثينوا ــ استاذ الفسيولوجيا ورئيس قسم العلوم الاكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو .

١ ــ الحسيون : دعاياتهم ضد الدين :

يقول البيان الشيوعي : « ان الدستور والاخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية وهي تسير وراءها من اجل مطامعها » (communistmeni festo) •

اقول : « ان الدستور والاخلاق وهي من الدين نفسه ، لو عني بهما المعنى الصحيح ، لكان الواقع التاريخي من هكذا دين مكذبا لهذه الدعاية الشيوعية ، اذ ان من اهم اهداف رجالات الوحي ، محاربة الظالمين والحفاظ على حقوق المظلومين واحقاء الحق عقائديا واقتصاديا • ولذلك نرى ان الاكثرية الساحقة ممن كانوا يعارضون النبيين ، والذين كانوا ولا يزالون حجر عثرة في سبيلهم ، انما هم الاغنياء المترفين والاقوياء الاغبياء الذين توغلوا في الشهوات المردية ، والظالمون الذين كانوا يستعبدون الناس ••• كأمثال فرعون ونمرود وهامان وقارون واحزابهم • من الطغام اللئام ، ولقد كانت الصراع متواصلة بين رجالات الوحي والطبقة العليا البورجوازية المسيطرة على الشعوب بالسيف والنار ، كما ويدلنا على ذلك كتب الوحي والالهام الخالصة من الدس والاقحام •

أجل لو عني بالدين الانظمة البورجوازية والقوانين التي تبرر سلطان الزور والغرور من الطبقة العليا ، لكان

هذا البيان حقا لا مرية فيه ، الا ان البيان الشيوعي لا يعني من الدين البورجوازي فحسب ، انما اعم منه ومن الاديان الالهية كما ويصرحون بذلك ليل نهار :

يقول لينين في خطاب ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في اكتوبر ١٩٢٠ :

« اننا لا نؤمن بالاله ، ونحن نعرف كل المعرفة ان ارباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الاله الا استغلالا ومحافظة على مصالحهم ، اننا ننكر بشدة جميع هذه الاسس الاخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الانسان ، والتي لا تتفق مع افكارنا الطبقية . ونؤكد ان كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال لصالح الاستعمار والاقطاع ، ونعلن ان نظامنا لا يتبع الا ثمرة النضال البروليتاري ، فمبدأ جميع نظمنا الاخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية (١) » .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز : « ان كل القيم الاخلاقية في تحليلها الاخير من خلق الظروف الاقتصادية ، فالتاريخ الانساني هو تاريخ حروب الطبقات التي امتص

---

(١) LENIN setected Moseow. 1997 Vol - p 661 .

فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين والاسس الاخلاقية حماية حقوق البورجوازيين » .

اقول : ١ ـ ومن درس الاديان الالهية حقها يعلم بيقين ان هذه دعاية زور وغرور ، وان الواقع من تاريخ الاديان يناقض ويعارض هذه الدعايات تماما .

٢ ـ ... ويقولون انما الدين مخلوق جهل الانسان بعوامل الطبيعة . فاذا اكتشف العلم علل واسباب التطورات الطبيعية زال الدين بموجباته الوهمية الخرافية .

ويقولون : ان القضايا الدينية وجدت لاسباب تاريخية احاطت بالانسان ، فلم يكن في استطاعته ان يفلت من السيول والاعاصير والطوفانات والزلازل والامراض . فأوجد قوى فرضية يستغيثها لتنقذه من النوازل . وهكذا ظهرت الحاجة الى شيء يجتمع الناس حوله ولا يتفرقون واستغل اسم (الاله) الذي تفوق قوته قوة الانسان ويهرع الجميع الى رضاه .

يقول محرر دائرة المعارف الاجتماعية تحت اسم الدين : « وبجانب المؤثرات الاخرى التي ساعدت في خلق الدين ، فان اسهام الاحوال السياسية والمدنية عظيم جدا في هذا المجال ، ان الاسماء الالهية وصفاتها خرجت من

الاحوال التي كانت تسود على ظهر الارض • فعقيدة كون الاله « الملك الاكبر » • صورة اخرى للملكية الانسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الاصل للملكية الارضية ، فأصبح الاله يحمل هذه الصفات الذي يجازي الانسان على الخير والشر من اعماله •

لقد خلق العقل الانساني الدين ، وأتم خلقه في حالة جهل الانسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية •

ويقول جوليان هكسلي : « فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الانسان وبيئته •• ان هذه البيئة قد فات اوانها او كاد ••• وقد كانت هي المسؤولة عن هذا التعامل فاما بعد فناء وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين •• لقد انتهت العقيدة الالهية الى اخر نقطة تفيدنا ، وهي لا تستطيع ان تقبل اية تطورات ، لقد اخترع الانسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ، جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم بالعقيدة الالهية حتى اخترع فكرة ( الاله الواحد ) وقد وصل الدين بهذه التطورات الى اخر مراحل حياته • ولا شك ان هذه العقائد كانت في وقت ما جزءا مفيدا من حضارتنا ، بيد ان هذه الاجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى افادتها للمجتمع الحاضر المتطور •

اقول : ان الواقع الخارجي والتاريخي يناقض ويكذب هذه الدعاية حين تعني من الدين عقيدة الاله .

اذ ان في القرون الاولى الى الوسطى وحتى الآن لم تزل البشرية كانت تعكف على اصنام واوثان وطواغيت تحسبها آلهة تضر وتنفع . كل ذلك لجهل البشر بالاله المجرد عن المادة . فجهل الانسان واتجاهه الى مادة العالم ، والدوافع الشهوانية ، كل ذلك كانت تمنعه عن الاعتقاد في الـــه واحد مجرد عن المادة .

ثم نرى الانبياء ومعهم الفلاسفة وبصيغة اخرى نرى كافة العقليين في توجيهات متواصلة حسب البراهين العقلية المتأيدة بالحس والعلم ، يوجهون هؤلاء الجهال الى الله الواحـد القهار ، تلك العقيدة المتفاعلة مع العقل والعلوم التجريبية وسواها . وتتفاعل مع واقع الكون وواقع الحياة تماما .

فلو ان اكتشاف علل الحوادث الطبيعية يقـدر ان يقضي على الالهة المتخيلة انها العلل المرموزة ، فهـل ان باستطاعته كذلك ان يقضي على علة العلل التي لا بد منها عقليا في المعلولات ــ والكون كله معلولات ــ تطورات وتبدلات ؟

ان تقدم العلم انما يقضي على تعدد الالهة والطاقات المستقلة الكامنة في الكون . ومن ناحية اخرى يؤيد فكرة

الاله التي هي في صيغـة أخرى فكرة : ان لكل معلـول علة ، فلا بد للكون من علة هي علة العلل والمعاليل ، لان الكون في تطور دائم .

فكلما تقدم العلم تأخر تأليه الاصنام وسائر طاقات الطبيعة وتقدم تأليه من ليس كمثله شيء وهـو اللطيـف الخبير . كما وتصدقنا العلوم التجريبية [1] .

الحسيون قد خيل اليهم ان فكرة الاله تعني ان الاله هو العلة الوحيدة لمعاليل الكون دون ان تكون هنـاك علل اخرى مهما كانت هي ايضا معلولة للاله .

يقول هكسلي « اذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي ان ننسبها الى اسباب فوق الطبيعة » .

هذا ، ولكن فكرة الاله وراء الطبيعة تعني انه علـة الكون اجمع . في حدوثه وفي القوانين الكامنة الحاكمة فيه ، وفي كافة تطوراته ، ولا نعني من علية الاله بطـلان العلية في قوانين الكون . كما لا تعني علية هذه القوانين بطلان العلية في اله الكون ، انما علة اصل وعلة فرع والثانية معلولة للاولى . فبيده تعالى ناصية كل شيء وهو الخالق للعلل ومعلولاتها دون ان تتغلب الطاقات الكونية علـى القدرة الالهية [2] .

---

(١) راجع كتابنا « حوار بين الالهيين والماديين .
(٢) راجع كتابنا « حوار » باب العلية .

اذا فهذا خطأ من القول وجهل : ان اكتشاف علل الحوادث ـ المادية ـ تغنينا عن فكرة الاله ، اذ لا تعني فكرة الاله ان كل العلل آلهة او اله واحد ، وانما علة العلل الذي هو قبل العلل ومعها وبعدها . دون ان تستغني هذه العلل الحادثة عن العلة الاولية الازلية كما حققناه في « حوار » .

اجل ان التعرف الى العلل الكونية تغنينا عن تأليه هذه العلل وعن اعتبار انها علل غيبية ، اذا فتقدم العلم انما يقضي على تعدد الآلهة . في حين انه يؤكد في وجود علة اولى وراء المادة ، خلاف ما يعنيه ويزعمه الماديون من تقدم العلم .

فهناك تفسيران لاهوتيان للاحداث : لاهوتي اول يعني فكرة الاله الواحد علة العلل الكونية ، ولاهوتي ثان يعني تعدد الآلهة ، وتقدم العلم انما يفضح التفسير الثاني، اذ وصل الى حد العلم بالكثير من العلل وانها ليست لاهوتية ، انما مادية كمعلولاتها .

واما ان يفضح التفسير الاول ـ فلا ـ اذ ان العلم لم يكشف النقاب عن وجه العلة الاولى وانها مادة لكي يقضي على هذا التفسير اللاهوتي ايضا .

فبالرغم من ان العلوم التجريبية لا تجعل العلة الاولى محسوسة للانسان ولن تجعل ، لكنها لا تنفي هذه العلة بل وتتأكد منها اعتبارا بأن العالم كله معلول ، وانالقوانين الطبيعية لا بد لها من مقنن .

اذا فتقسيم الفكر الفلسفي الى المرحلة اللاهوتيـــة والميتافيزيقية والوضعية ، اعتبارا ان الاخيرة هي المتقدمة، والاولى والثانية هما المتأخرتان حسب تأخر العلم في القرون الاولى ، هذا التفسير غالط .

يقول الفيلسوف الفرنسي « اوجست كونت » ق ١٩ ــ ان تاريخ تطور الفكر الانساني ينقسم الى مراحل ثلاث :

١ ــ المرحلة اللاهوتية ــ وهي التي فسرت الاحداث فيها باسم الاله .

٢ ــ المرحلة الميتافيزيقية وفيها فسر الانسان الاحداث باسم عناصر خارجية لا يعلمها ولكنه لا يذكر اسم الاله .

٣ ــ المرحلة الوضعية وفيها اخـذ الانســان يفسر الاحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة يمكـــن ادراكها بالمطالعة او بالمشاهدة العلمية ، وفي هذه المرحلـة لا تذكر « الارواح والالهة والقوى المطلقة » .

ثم يقول : ونحن بناء على هذا نعيش فيالمرحلة الثالثة التي تسمى في الفلسفة الحديثة بالوضعيـة المنطقيـة او

التجريبية العلمية ونجد على ظهر هذه الفكرة امثال«هيوم» و « ميل » و « برتراندرسل » واحزابهم .

اقول : ان المرحلة التي يعبر عنها باللاهوتية اعتبارا ان الاحداث فيها كانت من قوى مجهولة مجردة عن المادة هم الالهة . أقول ان هذه المرحلة ليست لاهوتية ــ انما خرافية شركية . كانت البشرية تزعم ان هذه الطاقات المجهولة آلهة ، سواء أكانت طاقات مادية أم سواها .

فقد عاشت البشرية زمنا وحتى الان ، كانت تزعم فيها ان هناك في الكون طاقات هي الآلهة سواء أكانت مادية أم روحانية ، معلومة او مجهولة ، ويعم هذا الدور المرحلة اللاهوتية على حدتفسيرهم ، والمرحلةالميتافيزيقيةوالوضعية المنطقية ، وكل هذه الادوار الثلاثة تحول حول تأليه غير الاله الواحد .

وفي خلال هذه الادوار نجد دور رجالات الوحي وسائر الالهيين الذين كانوا ولا يزالون يفسرون علل الحوادث بكلتا العلتين ، المادية واللاهوتية . العلل المادية والقوانين المحكمة على الكون ، والعلة اللاهوتية الخالقة لكل الحوادث وعللها .

وهذه هي الفكرة المتقدمة المتكاملة المتفاعلة مع

الواقع ، لا الوضعية المنطقية ، لانها كانت من بداية ولادة الانسان حتى الان ، ان البشر كان لا يعتقد في فكرة الاله. وكان يؤله المادة إما في أصلها او في طاقاتها . وهذه نتيجة ركود العقل وجموده على المدركات الحسية .

وعجيب من هؤلاء الذين يعتبرون انفسهم فلاسفة ثم يعتبرون الجهل بعلل الحوادث من دوافع فكرة الاله ، رغم انه من دوافع فكرة الشرك بالله او تأليه هذه العلل المادية!

ثم لا نجد دافعا لفكرة الاله المجرد عن المادة الا العقل المجرد الخالص عن شوائب الاوهام ، المتقدم في التعقل والتفاعل مع الواقع كما وسوف نبرهن عند البحث عن ادلة وجود الله ..

ان العلوم التجريبية ــ على حد وظائفها ــ لا تفسر لنا الا المادة . في عللها ومعاليلها المادية . واما ان تفسر ما الذي وراء المادة ؟ أهو ايضا مادي أم ليس به ؟ ليس هذا من شؤون العلوم التجريبية ، رغم انها بصورة مستطردة تؤيد فكرة الاله .

لا ننكر ان هناك عللا مادية كشف عنها العلم ــ ما كان البشر ليعلم انها علل ــ سواء أكان يظنها الالهة دون علة هي مخلوقة بارادته، او يظنها عللا لاهوتية: «آلهة» ..وقد قضى العلم على العلل اللاهوتية ــ وعلى اختصاص العلية ــ بدء ختم ــ بالله .

الا ان الدين الالهي الصحيح يصرح هكذا : ان الله تعالى هو علة العلل ، وقد خلق عللا طبيعية هي تعمل باذنه وارادته • دون ان تكون هناك منافاة بين علية الاله وعلية العلل الطبيعية المخلوقة بارادة الاله ••• كعلل طوليـــة مندفعة من علة العلل • اندفاعا راديا أم طبيعيا •

يقول البروفسور سيسيل بايس هامان ، وهو استاذ امريكي في البيولوجيا : « كانت العملية المدهشة فـــي صيرورة الغذاء جزء من البدن تنسب من قبل الى الالـــه فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا ، هـــل أبطل هذا وجود الاله ؟ فما هي القوة التي اخضعت العناصر الكيماوية ، لتصبح تفاعلا مفيدا ؟ ومن المستحيل ان يتحقق وجود هذا النظام المدهش ، باتفاق محض ، فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات ان نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة » •

هذا ــ وكما كان الانسان القديم يزعم ان السماء تمطر فيقدس السماء انها اله ، لكننا اليوم نعرف انه من عمليـــة تبخر الماء في البحر حتى نزول قطرات الماء علـــى الارض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست في ذاتهـــا تفسيرا لها •

فالعلم لا يكشف لنا كيف صـــارت هـــذه الوقائع

قوانين ؟ وكيف قامت بين الارض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة حتى ان العلماء يستنبطون منها قوانين علمية .

والحقيقة ان ادعاء الانسان بعد كشفه لنظام الطبيعة: انه قد كشف تفسير الكون ، ليس هذا الادعاء سوى خدعة لنفسه ، فانه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الاخيرة .

فكل اكتشافة جديدة للقوانين الحاكمة على الكون، تعتبر تقدما جديدا للتعرف الى اله الكون الذي قنن هذه القوانين البارعة في الكون .

وكما ان كل تأخر في العلم بهذه القوانين يؤخر الانسان عن فكرة الاله .

ولذلك نرى القرآن يأمرنا بالنظر في الكون « قل انظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ( / )

اعتبارا ان العلم من خدام فكرة الاله لا من معارضيها ، الا اذا قورن بالعناد والشهوات وسائر دوافع الالحاد ، « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ( / )

### ٣ ـ مـن خلـق اللـه ؟

هذه شبهة ثالثة في وجود اللـه ، تعلـق بأذهـان الكثيرين :

يقول ( جون ستيوارت ميل ) في سيرة حياته : ان اباه قد علمه أن سؤال « من خلقني » لا يكفي لاثبات وجود الاله ، اذ ينجم تلقائيا سؤال « فمن ذا الذي خلق الله ؟ » وقد اعتقد ( برتراند رسل ) هذا الاعتراض الثاني كافيا لرفض مدلول السؤال الاول !

اقول : ولكن ليعلم السائلون ان « من خلقه .. ؟ » انما يصح في المخلوق دون الخالق الازلي الـذي ليـس بمخلوق ، ولذلك ترى الماديين القائلين بأزلية المادة الاولية وحدوث التطورات لا يقفون في هكذا سؤال عن المادة الا ان يقولوا :

ليست المادة الاولية مخلوقة حتى يسأل عن خالقها[1].

فهناك في الكون أزلية، سواء في المادة الاولية او الاله المجرد عن المادة ، فكما ان سؤال « من خلقه .. ؟ لا يرفض مدلوله في المادة الاولية: «ليس للمادة الاوليةخالقاذ ليست مخلوقة » في ظن الماديين ، كذلك ـ وبالاحرى ، لا يرفض

---

(١) راجع كتابنا « حوار » ص ٧٧ و « المناظرات » .

مدلوله « ليس للاله خالق لانه ليس بمخلوق » في نظر الالهيين •

ومما لا يريبه شك انه لا يمكن انكار ازلية مّا في الكون ــ اذ ان انكارها يستلزم انكار الكون المتطور الحادث اطلاقا ــ فكيف يقول برتراندرسل : ان مدلول السؤال « من خلقني » لا يكفي لاثبات وجود الله ••• في حين انه « في زعم الماديين » يكفي في اثبات خالقية وأزلية المادة الاولية •

**٤ ــ هل المادة اله نفسها ــ الهها من داخلها :**

بعد ان اكتشف نيوتن فكرة : ان الكون مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك فينطاقها الاجرام السماوية، خلقت هذه الفكرة ظرفا لانكار الاله ، آ ذخيل الى اصحاب هذه الفكرة كأن هذه القوانين الكامنة في المادة ــ المتحكمة عليها ــ قد تنوب الاله الذي اختلقه جهل الانسان بهذه القوانين على حد زعمهم ، فكان يفسر لها تفسيرا لاهوتيا ، فلم يبق ــ في زعمهم ــ رمق للاله الا القول : انه هو المحرك الاول للكون •

ضرب والتير مثلا في هذا الصدد : ان الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ثم تنقطع صلته بها •

ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الاله الميت ايضا وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعا » .

وقال هكسلي : « اذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي ان ننسبها الى اسباب فوق الطبيعة » ..

هذه هي الشبهة الرابعة في انكار الاله ، ولكن نسأل « هيوم » هل ان معلومات الانسان محصورة فيما يراه اذا فلينكر عقله وعقول العقلاء ، لينكر علمه وفكره ، ولينكر القوة الجاذبية العمومية ، فهل باستطاعته ان ينكر كل ذلك ، أم يستدل بآثارها عليها ، فليستدل ـ كذلك ـ بالكون ، بما يحكم عليه من قوانين ، على ان هناك الها ، لان الكون كله آثار وحوادث [1] .

وقد بحثنا في الجواب عن الشبهة الثانية حول عدم منافاة الكشف عن علل الحوادث مع التأكد من وجود علة العلل . وسوف نفصل البحث عنها عند سرد البراهين على وجود الخالق .

يقول الماديون : «الاله الذي اكتشفه العلم في جوهر

---

(1) راجع كتابنا « حوار » بحث الازلية والحدوث .

ذات المادة يغنينا عن اله اجنبي خارج نطاق المادة ، فالاله الداخلي هو القوانين الحاكمة على المادة من داخل ذاتها.

ولكن يبقى عليهم ان يبرهنوا لانحصار القوات الحاكمة على المادة بما في ذواتها من طاقات ، حال ان المادة بطاقاتها وحركاتها الدائمة وتغيراتها وتركباتها والزمان الملازم لها ، تصرخ من كل هذه الاذاعات الاربعة ليل نهار انها بحاجة ذاتية ضرورية الى ما ليس مادة ، هذه جغرافية المادة المحكومة بها بالحدوث الذاتي كما وسوف يأتيكم تفصيل البحث عن براهين حدوث المادة من قريب [1] .

**٥ ـ شبهة التجرد :**

يقول الماديون « ان القول بتجرد الاله الخالق يبرر القول انه لا اله ومحال ان يكون ! » .

فهم اذا لا يكتفون بالشك في وجود الاله ، بل ويحيلون وجوده المجرد قائلين :

١ ـ المجرد عن المادة هو المجرد عن الوجود وكيف يمكن تأليه المعدوم حال اننا لا نسمح بتأليه الكثير من الموجودات وان كانت عاقلة كالانسان فكيف بالمعدوم !

---

(١) والتفصيل الى كتابنا « حوار » .

٢ ــ أي فريق بين المعــدوم والموجود المجرد ، مع اشتراكهما في التجرد عن المادة ؟ فكما الاله (في زعم الالهيين) مجرد عن المادة ، كذلك المعدوم ، وكذلــك المستحيــل الوجود .

اذا فاعطاء الخالقية للاله المجــرد ليس الا اعطاءهــا للمعدوم أو للمستحيل الوجود ، وهذا محال في محال ، واية خرافة في الفكر اعجب من هكذا خرافة » .

اقول : ولكن هذا كله يدور مدار حصر الوجود في المادي لا سواه ، حتى اذا لم نجد ذاتيات المادة وصفاتها في شيء سمح لنا ان ننفي عنه الوجود ، رغم انه لا يسمح الا نفي قسم ضئيل من الوجود ، وهو المادي منه .

فالوجود لا يعني الا الوجود ، لا المادي منه فحسب ، ولا المجرد عن المادة فحسب ، وعلى من يدعي حصره في المادة ان يأتي ببرهان دون ان يكتفي بالدعوى ويعتبر دعواه برهانا على ما يدعي .

واما اشتراك المعدوم والمجرد في نفي المادة ، فهذا لا يشركهما في العدم ، اذ ان المعدوم ليس شيئا حتى يحمــل وصف المادية والتجرد عن المادة . ولذلك يصح نفي هذين النقيضين عنه: « المعدوم لا مادي ولا مجرد عن المادة » واما

المجرد فهو فيما نعتقد ، موجود لا يحمل نقيضه وهو المادة، ونفي المادة عن الموجود المجرد انما يعتبر نفيا لوجوده لو انحصر الوجود في المادة وهو اول الدعوى .

فالمجرد عن المادة اعم من المجرد عن الوجود اطلاقا والمجرد عن الوجود المادي فقط .

وهذا يختلف عن المعدوم لانه مجرد عن الوجودين المادي والتجردي معا . ويكفي هذا فرقا بين المجرد والمعدوم [1] والماديون لا يستندون في نفي الوجود عن الاله المجرد الا بنفي المادة ــ بذاتها وصفاتها ــ عنه ، ونحن نعتبر هكذا نفي ضروريا في اثبات الوهيته وأزليته لان المادة حادثة ايا كانت .

### ٦ ــ شبهة الازلية

يقولون : اننا لا نعقل موجودا ليست له بداية فكيف نعتقد في الاله الازلي فلماذا اختص هو بالازلية دون سواه ؟ ومن أين جاءته الازلية دون سواه ؟

ولكن قولهم : لماذا اختص هو بالازلية دون سواه

---

(١) راجع كتابنا « حوار » مشكلة التجرد ص ١٠٦ــ١١٤

في معنى الاعتراف بامكان او ضرورة ازلية مّا في الكون وقولهم من أين جاءته الازليـــة يعني انهم ما عرفوا معنى الازلية وانها اللااولية في الوجود ــ وانه لا معنى لمجيئها فانها حاصلة منذ الازل .

فهؤلاء بين أمرين : انكار الازلية للمجرد لاستحالتها فهو انكار للازلية في الكون اطلاقا واقرار بحدوث كـــل كائن ايا كان . او انكار أزلية المجرد لتجرده عن المادة فهذا يتنافى واستبعادهم لاصل الازلية . والقول بحدوث الكون اجمع يضطرهم اخيرا الى الاعتقاد في وجود ازلي خلـــق الكون أجمع [1] ، اذ كيف تحـــدث الكائنات دون مكون أزلي .

**٧ ــ شبهـــة الحـــدوث :**

... انهم احيانا ينكرون حدوث العالم اذ يحيلونه او يستبعدونه كيف حدث ؟ أمن العدم ولا يصبح العـــــدم وجودا والمعدوم موجوداً ؟

او من موجود قبله وهذه ولادة وليس حدوثا ؟

وقانون لاوازية « ان المادة لا تحدث من عدم كمـــا

---

(١) راجع كتابنا « حوار بحث الازلية والحدوث » .

انها لا تنعدم » يؤيد فكرة استحالة الحدوث ــ حدوث الذات بعد ان لم تكن الذات شيئا .

والجواب : ان العالم لم يحدث من لا شيء ولا من شيء كان قبله ، انما لا من شيء بارادة خالق الاشياء ، وقانون لاوازية لا يعني الجهة الفلسفية من الحدوث ، انما الفيزيائية أي ان الحالات المختلفة للاجسام ليستوجودات وذوات وحوادث متعاقبة ، انما حالات وتطورات متلاحقة على مادة ما ، فهو يعني بقانونه هذا : ان تلكم التقلبات والتغيرات الماهوية في المادة لا تحكم على ذات المادة بالحدوث بعد الزوال . ولا الزوال بعد الحدوث ، وانما الحادث في كل حادثة هو الصورة الطارئة على المادة . والمادة في اصل ذاتها متحفظة بماهيتها المادية [1] .

وأما أصل المادة فهي مخلوقة خلقت لا من شيء كان قبلها لا من اللاشيء [2] .

---

(١) راجع كتابنا « حوار » ص ٥٩ ــ ٦١ .

(٢) راجع كتابنا « حوار » ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ والمناظرات.

**مبدا النقيض :**

**شبهات حول التناقض :**

قد يقال : كما كشف العلم عن الكثير مما كان مرموزا ومجهولا او كان مستحيلا ، كشف عن واقعها بصورة ملموسة محسوسة ، وجعل بعض المحالات من الممكنات.

فهكذا قد يفسح المجال لحل عقدة الاستحالة عن اجتماع النقيضين وارتفاعهما [1] وقبل قليل كشف العلم عن ان التناقض كامن في ذوات الاشياء الى حيث لا يستطيع كائن ان يتحلل عن التناقض الداخلي .

يقول ستالين « ان نقطة الابتداء في الديالكتيك ـ خلافا للميتافيزية ـ هي وجهة النظر القائمة على ان كل اشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية ، لان لها جميعا جانبا ايجابيا ـ ماضيا وحاضرا ـ وفيهاجميعا عناصر تضمحل وتتطور [2] .

ويقول لينين « الديالكتيك بمعناه الدقيق هو دراسة التناقض في صميم جوهر الاشياء » [3] .

---

(١) راجع كتابنا حوار بين الالهيين والماديين، ص ٤٦ـ٤٩ .
(٢) راجع المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص١٢ .
(٣) حول التناقض ، ص ٤ .

« والمنطق الديالكتيكي هو علم الفكر الذي يرتكز على الطريقة الماركسية المميزة بهذه الخطوط الاساسية الاربعة : الاقرار بالترابط العام ــ وبحركة التطور ــ وبقفزات التطور ــ وبتناقض التطور » [1] .

**ماوتسي تونغ ومبدأ النقيض :**

ويقول ماوتسي تونغ « ان التناقض في الاشياء ــ اي قانون وحدة الاضداد ــ هو القانون الاساسي الاهم في الديالكتيك المادي » .

ويقول : بعد اكتشاف النظرة الديالكتيكية المادية الى العالم بواسطة مؤسسي الماركسية الكبيرين ــ ماركس وانجلز ــ وبواسطة مكملي عملهما العظيمين ــ لينين وستالين ــ قد طبق الديالكتيك المادي بنجاح عظيم جدا في تحليل جوانب عديدة من التاريخ البشري والتاريخ الطبيعي .. واصبحت عمومية التناقض شيئا معترفا به لدى كثير من الناس .. اما مسألة خاصية التناقض فان عددا كبيرا من الرفاق واصحاب الجمود العقائدي منهم بصورة خاصة ، لم يفهموها بعد حق الفهم ، انهم لا يفهمون ان عمومية التناقض تكمن بالضبط في خاصية التناقض ، كما لا يفهمون الى اي درجة عظيمة تبلغ اهمية دراسة خاصية

---

(١) المنطق الشكلي الديالكتيكي ، ص ٩ .

التناقض الكامنة في الاشياء المحدودة، ان عمومية التناقض او صفته المطلقة ذات معنى مزدوج ، فأولاتوجد التناقضات في عملية تطور جميع الاشياء ، وثانيا توجد حركة التناقض في عملية تطور كل شيء منذ البداية حتى النهاية .

يقول انجلز : ان الحركة نفسها هي التناقض ، ويعرف لينين قانون وحدة الضدين بانه اعتـراف ( اكتشـاف ) بالاتجاهات المتناقضة المتعارضة المستقلة عن بعضها فيجميع ظواهر الطبيعة ( بما فيها الفكر والمجتمع ) وعملياتها .

ثم يقول ماوتسي تونغ تصحيحا لما نقله عنالمذكورين: ان الاعتماد المتبادل بين طرفي كل تناقض في كل تناقض في كل شيء معين والصراع بينهـا ، يقرران حيـاة ذلك الشيء ويدفعان تطوره الىامام ، فليس ثمة شيء بهتناقض ، ولولا التناقض لما وجد شيء .

ان التناقض هو اساس الاشكال البسيطة للحركـة ( مثلا الحركة الميكانيكية ) وهو بالاحرى اساس الاشكال المعقدة للحركة .

ويقول : قد اوضح انجلز عمومية التناقض بالعبارات التالية : اذا كان التغير الميكانيكيالبسيط لشيءٍ مّا منمكان لآخر ينطوي على تناقض فان ذلك ينطبق بالاحرى علـى الاشكال الاعلى لحركة المادة ، وبخاصة علـى الحيـاة

العضوية وتطورها .. ان الحياة تعني بالتحديد-وقبل كل شيء-: ان الشيء الحي هو في كل لحظة ذاته ، ولكن في نفس الوقت شيء اخر ايضا ، فالحياة اذن هي ايضا تناقض قائم في الاشياء والعمليات ذاتها ، وهو ينشأ ويحل نفسه باستمرار ، وحالما يتوقف هذا التناقض تتوقف الحياة ايضا ويحل الموت .

ولقد رأينا كذلك اننا لا نستطيع في مجال التفكير ايضا ان نتجنب التناقضات ، وان التناقض مثلا بين قدرة الانسان الكامنة فيه اللامتناهية على المعرفة ، وبين وجودها الفعلي في البشر الذين هم محدودون خارجيا ويملكون معرفة محدودة ، هذا التناقض يجد حله في تعاقب لا متناه بالنسبة الينا ــ على الاقل في الواقع ــ من الاجيال في التقدم الذي لا نهاية له ←

يقول : اوضح لينين عمومية التناقض كما يلي : في الرياضيات : + و ــ التفاضل والتكامل في الميكانيكا : الفعل ورد الفعل←:

في الفيزياء : الكهرباء الموجبة والسالبة .

في الكيمياء : اتحاد الذرات وتفككها .

في العلوم الاجتماعية : الصراع الطبقي .

نقول ان الشيوعيين يستنتجون من ذاتية التناقض

بين الاشياء وبين الافكار ان الحركات والتطورات الموجدة في الاشياء ليست لاسباب خارجة عن ذواتها حتى نفلسفها بما وراء الطبيعة ونحتاج الى فكرة اللاهوت ، لان كل هذه التطورات ناتجة عن التناقض والتصاد الموجود في جواهر الاشياء من البداية ، خلافا لمدرسة ديبورين اذ تقول ان التناقض لا يظهر منذ بداية عملية ما وانما يظهر عندما تكون العملية قد تطورت الىمرحلةمعينة ، وبناء عليه نحتاج الى اسباب خارجية الى هذه المرحلة المعنية ـ

ويستنتجون أيضا ان القول باصالة المادة لا ينفيه لزوم التناقض فيما اذا استلزم القول بحدوث المادة معالقول بأزليتها ـ او عدمهما معا . . ".

ولقد فصلنا القول في استحالة التناقض ذاتيا فيكتابنا ( حوار ) وان التناقض المزعوم والحركة الموجودةفيالاشياء ليس تناقضا اصطلاحيا يحيله العقل ، وان نفس هذهالحركة والتغير هي حجر الاساس لاثبات حدوث المادة ، التي تعتبرها الماركسية ذاتية الحركة وذاتية التناقض ، لحد لولا الحركة والتناقض فلا وجود مادي .

ونحن نقول كذلك : لولا السبب الخارج عن ذات المادة المحرك والمطور للمادة فلا مادة ، اذ ان نفس التطور

والحركة والتغير حادث وكما فصلناه في ظواهـر حدوث المادة [1] .

فالشحنتان : الموجبة والسالبة ـ الموجودتان في صميم ذوات الاشياء لا تتناقضان ولا تتنافيان ، انما تتفاعـلان في كيان الاشياء ذاتيا وتطورا ، اذا فمبدأ النقيض وهو أهم المبادىء الفلسفية عند الماركسية في انكار وجود الله أصبح من اهم المبادىء في اثبات وجود الله تعالى .

انهم يقصدون من تطور الاشياء بطاقاتها الذاتية غير المستمدة من خارج ان يقضوا على فكرة الاله ـ ولكنهم يثبتون من ناحية اصيلة فكرة الاله اعتبارا ان ذاتية التطور والتحرك والتغير تنادي بحدوث المادة بعوارضهـا فهـي بحاجة الى علة اولية .

ونحن نقول ان العلة الاولية كما خلق المادة الاولية ، كذلك قرر قوانين مادية في جواهرها وذواتها متفاعلة،وهذه القوانين تطورها ، دون ان تكون مستقلة في تطويرها ، وانما الله من ورائها محيط ، وليست هذه العلل الماديـة الكامنة في المادة مستقلة وغالبة في جنب علة العلل ، انمـا هي عمال العلة الاولية مسيَّرة لا مخيرة له ان يحدها ولـه أن يقضي عليها وكما نرى في خوارق العادات . فالفكـرة

---

(١) حوار ، ص ١٨١ ـ ١٤٢ .

الميتافيزيقية الصحيحة لا تنكر العلل المادية ، وانما تنكر اصالتها واستقلالها وازليتها .

هذه الفكر تعتنق في اله واحد وراء المادة ، هو الذي خلق المادة بعللها المادية ومعاليها ، دون أن تستقل عن الاله الخالق المطور المصور .

فمبدأ النقيض ــ رغم معتنقيه ــ لا يناقض فكرة الاله بل ويعاضدها ويؤيدها كما وسوف نبرهن عليه عند البحث عن ظواهر وبراهين حدوث المادة .

يقول ماوتسي تونغ : يوجد التناقض في عملية تطور جميع الاشياء ــ وهو يتخلل عملية تطور كل شيء من البداية حتى النهاية ــ هذان هما عمومية التناقض وصفته المطلقة ــ ونتحدث الان عن خاصية التناقض .

اولا : ان للتناقض في كل شكل من اشكال حركة المادة صفته الخاصة ــ ان معرفة البشر للمادة هي معرفتهم باشكال حركة المادة لانه ليس في العالم شيء سوى المادة في حالة حركة ، وحركة المادة لا بد أن تتخذ شكلا من الاشكال المعينة ــ وينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار عندما نتفحص كل شكل من اشكال حركة المادة ــ السمات التي يشترك فيها هذا الشكل مع الاشكال الاخرى للحركة ــ لكن ما له اهمية اعظم هو وجوب ملاحظة السمة الخاصة للشكل

المعين من اشكال حركة المادة وملاحظة هذه السمة الخاصة هي التي تشكل اساس معرفتنا بالاشياء ـ اي ملاحظة الاختلاف الجوهري الذي بينه وبين الاشكال الاخرى ـ وبهذا وحده نستطيع ان نميز بين الاشياء المختلفة ـ ان كل شكل من اشكال الحركة يحتوي في ذاته على تناقضه الخاص ـ وهذا التناقض الخاص يشكل الجوهر الخاص الذي يميز الشيء عن الاشياء الاخرى ـ وهذا هو السبب الباطني او الاساسي كما يسمى ايضا في الاختلاف العظيم الذي لا يمكن حصره بين الاشياء المتنوعة في العالم ـ وثمة اشكال عديدة للحركة في الطبيعة : الحركة الميكانيكية ـ والصوت ـ والضوء ـ والحرارة ـ والكهرباء ـ والتفكك ـ والتجمع ـ وهلم جرا ـ وجميع هذه الاشكال يعتمد بعضها على بعض في البقاء ويختلف بعضها عن بعض جوهريا في آن واحد ـ وان الجوهر الخاص الذي يحمله كل شكل من أشكال حركة المادة يتحدد بالتناقض الخاص الذي يتميز به ذلك الشكل ـ وينطبق هذا لا على الطبيعة وحدها ـ بل ينطبق كذلك على ظواهر المجتمع والتفكير ـ فان كل شكل من اشكال المجتمع وكل اسلوب من اساليب التفكير ـ له تناقضه الخاص وجوهره الخاص ..

هذا ماوتسي تونغ وكثير مثله من الماديين يعتبرون حجر الاساس في انكار وجود الله مبدأ التناقض في صميم

جوهر الاشياء ــ وان المادة هي الحركة ــ وانه ليس في الكون الا حركة ومادة هما واحد .

ولكنهم من حيث لا يعلمون يحفرون من وراء ذلك قبر ازلية المادة ويحوجونها الى محرك اول . اذ يصرحون بحدوث المادة ذاتيا بما يصرحون بحركتها المساوية لكيانها ــ والحركة = الحدوث ! فاذا كان مطور المادة هي الحركة فلنسأل اذا عن خالق الحركة ومحدثها ــ اهي حركة اخرى ــ والحركة في ذاتها حادثة ايا كانت ؟ فلا بد من محدث ومحرك اول هو مطور وليس بمتطور ــ محرك وليس بمتحرك ــ والا لاستحال وجود المادة وبقاءها ! .

وذاتية الحركة في المادة ــ على حد تعبير الماركسيين ــ لا تعني الا ذاتية الحدوث ــ اذ الحركة هي الحدوث بعينه ، اذا فليست الذاتية تنفعهم في استغناء المادة عن خارج ذاتها ــ المحرك غير المتحرك ــ الازلي غير الحادث ــ المطور غير المتطور ــ الموجود غير المادي .. خارج عن الحدين : حد الابطال وحد التشبيه » .

اذا فقول ماوتسي تونغ : ان قانون التناقض في الاشياء اي قانون وحدة الضدين هو القانون الاساسي في الطبيعة والمجتمع وبالتالي القانون الاساسي للتفكير ، انه مناقض للنظرة الميتافيزيقية الى العالم .

هذا القول لا محصل له ــ لــو اراد من التنــاقض سبب التطور الداخلي في الاشياء ، الا انه يريد ليكتفــي بالطاقة الداخلية ــ وعلى حد تعبيره ــ بالطاقة الذاتيــة في الاشياء فيحللها عن طاقة خارجة عن ذواتها ــ وأنى له ذلك !

واصلاح أخير لقوله بالتنــاقض بين المبدأين هو انه يريد به التلائم التام بينهما ، كما التناقض في صميم جواهر الاشياء هو السبب للتلائم في التطور نحو الكمال المطلوب! فلتفتش الماركسية عن أعماق كيان المادة فانه لا يزيدها الا ان المادة بحاجة ضرورية حيوية الى طاقة جبارة وراءهــا ــ والكشف عن علل التطوير في المــادة وانهــا التناقض والحركة الذاتية في صميم جوهر الاشياء ــ هذا الكشف لا يغني المادة ــ الذاتية الحركــة ــ عما وراءها ، اذ ان المادة اذا ليست الا الحركات وهي حادثة الذات ، فالمــادة التوأمة مع الحركة في ذاتها ، هي ايضا حادثة الذات .

**اشتراكية في العداء للدين الالهي :**

ان السوشيالست ( الاجتماعيين ) والنيلست (العدميين) والكوميونست ( الاشتراكيين ) غايتهــم جميعا رفــع الامتيازات الانسانية كافة واباحة الكل للكل ، واشراك الكل في الكل ، وجميعهم على اتفاق في ان جميع المشتهيات

الموجودة على سطح الارض منحة من الطبيعة ( والاخـاء بالتمتع بها على سواء ) ويرون ان الدين والملك عقبتـان عظيمتان وسدان منيعان يعترضان بين ابناء الطبيعة ونشر شريعتهـا المقدسة ! ( الاباحة والاشتراك ) •• ويفرضون على طلاب الحق الطبيعي ان ينقضوا هذيـن الاساسيـن ويبيدوا الملوك ورؤساء الاديان ، ثم يعمـدوا الى الملاّك وأهل السعة في الرزق ، فان دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص فتلك وإلا أخذ باعناقهم قتلا حتى يعتبر بهم من يكون من امثالهم ، فلا يلوون رؤوسهم كبرا على الشريعة المقدسة ! : شريعة الطبيعة •

هؤلاء يخلطون بين الديانات الالهية وبين الملكيـة الظالمة فيضربون بسوط جبار قاس على القبيلين •• ودرس الديانات الصحيحة الالهية يورثك جوابا حاسما عـن هذه الشطحات •

**الازليـة والحـدوث :**

نقول : واقع الكون كله لا يخلو عن انه حادث بتمامه أو أزلي كذلك او بعضه حادث وبعضه ازلي ــ وتقسيـم الموجود من حيث الكيان الزمني الى الازليـة والحدوث تقسيم حاصر عقلي لا يقبل سواهما ــ سواء كان جمعـا بينهما او نفيا لهما ــ او ثالثا بينهما برزخا بـين الازليـة

والحدوث كما يزعم في المادة وكما يخيل الى بعض الفلاسفة من الحدوث الذاتي والازلية الزمنية للكون .

فالحكم بحدوث الكل حكم بالحاجة الى أزلي احدثه ، وهو الله تعالى شأنه ، والحكم بأزلية الكل يبطله الحدوث الملموس في المادة .

يبقى الحكم بحدوث المادة وأزلية خالق المادة وهو الله تعالى [1] .

**المـادة او اللـه :**

ان المادة ـ ايا كانت ، طاقة وسواها ـ تنادي مـن صميم ذاتها وصفاتها انها حادثة الذات والصفات ، وقـد احاطت بها ظواهر اربع ذاتية ، تقضي على ازليتها : الزمان، التغيير، الحركة ، التركيب [2] ، وهي جغرافية المادةالملازمة لذاتها ، لا تقدر ان تحلل عن شيء منها .

**التصـوف طـوال التاريـخ :**

ان التصوف بعبارة موجزة : طاقة تخديرية نشبت في الاديان ، فجعلتها شذر مذر وكأنها لا شيء ، اذ قضت على

---

(١) راجع حوار ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ؛ ١٢٨ ، ١٣٩ .

(٢) راجع حوار ، ص ١٨٩ ، ٢٤٢ .

الطقوس الدينية بتهمة ودعاية انها قشـور وليسـت الا للقشريين ، والحاجة اليها انما هي ما دام الانسان غيـر واصل الى حضرة القرب والكمال المطلوب، وأما الواصلون ـ سواء بواسطة القشور أم سواها ـ فليسوا بحاجة الى هذه الطقوس الدينية •

نرى هذه الصوفية القاضية على القشور ! في كافة الاديان الالهية وسواها •

لهذه الفكرة مرحلتان : ١ ـ فلسفية تتمثل في وحدة الوجود بمختلف معانيها ٢ ـ عملية تتمثل في ابطال شريعة الناموس بالمرة ، او الاكتفاء بالبعض منها •

والدافع الاصيل لهذه الفكرة هو التحلل عن القيود المحددة لحرية الانسان •

ويختلف عن التحلل الالحادي والاباحي بالطابـع الديني الذي يتستر ورائه الصوفي ، ولكي يبرر اعمالـه المخالفة للشرع بوجه شرعي ، هو في زعمه فوق الشرع ، المسمى عنده بالطريقة مقابل الشريعة •

وهذه الصوفية العارمة هي التي قضت على المسيحية وتريد القضاء على الاسلام ايضا ، واتباعهـا هم الذيـن يحاولون التحلل عن أسر الشريعة فيجدونها احسن مبـرر وآمن ملجأ لما يريدون •

ثم الصوفي يطلق احيانا على الزاهد المراقب لاعماله الصافي عن كدر العصيان والعلاقات الدنيوية ، وهو بهذا المعنى من اصل الشريعة دون ان تكون طريقة خاصة تختلف عن الشريعة .

ونحن اذ ننقد التصوف والصوفي فانما نعني من انعزل عن الشريعة او اضاف اليها ما لم ينزل الله به سلطانا ، مما يسمى بالطريقة .

**الصوفيـة البولصيـة :**

بولص الرسول ، اول من فتح باب التصوف علـى المسيحية فقضى على شريعة الناموس بتصوفه العارم [1] .

ومن جرائه اخذ اذنابه في دعايات متواصلـة لنشر التصوف في الاسلام ايضا ليقضوا عليه كما قضي علـى المسيحية ، وعلى المسلمين ان ينتبهوا .

**الفكر الفلسفية حول الاله : وحدته وكثرته :**

لقد كثرت الاراء ـ بعد اثبات وجود الله ـ في : هل هو واحد لا شريك له ، كما دعي اليه انبياء الله تعالى، أم اثنان : اله الخير واله الشر .. كالثنوية ، أم ثلاثة في

---

(١) راجـع المقارنـات ، ص ٦١ ـ ٧٠ ، بولص ناقـض الشريعـة .

واحد او في ثلاثة اقانيم كالثالوثيين المسيحيين ومن سبقهم من الوثنيين [1] .

**... الفِكَـر الفلسفيـة التقدميـة :**

في هذا النضال الفكري الفلسفي ـ طوال التاريخ ـ نجـد طابع الحقيقة والتقدم والحضارة في الفكر الفلسفي نجده في مكاتب النبيين ، اذ نجدهم في كلمة واحدة يصدقها العقل والفطرة والحس والواقع الخارجي : ان الكون المادي كله حادث خلقه الخلاق العظيم ، الاله الواحد الحي القيوم، المجرد عن الحـدود والعوارض المادية . الازلي الابدي ، ونجدهم يوجهون البشرية الى فكرة الاله الواحد ، والى عبادته وطاعته لصالحهم في كافـة المجالات الحيوية ، ونجد كل الحضارات طوال التاريخ انها من رجال الوحي ، وان الخرافات والاوهام البشرية هي التي اخرت الانسان ـ ما تأخر ـ عن مصيرة الكمال ، خرافات وحيونات يسمونها حضارات ، ونحن نعني من الحضارة الجانب الانساني منها، رافضين حيونتها لاهلها .

**الافكار المحركة للتاريخ والصانعة للحضارات :**

... سير عابر في حياة الانبياء طوال التاريخ الرسالي

---

(١) راجع كتاب التوحيد من كتابنا «حوار» و «عقائدنا».

يعطينا هذه الفكرة : انهم انما بعثوا لبعث البشر عن الغفوة والغفلة، ولتعديل الحياة وترقيتها بهما أمكن ـ ولمحاربة الجهل والظلم والخرافات والاوهام ، فهم الرعيل الاعلى ، وهم في الصف القدامي لترقية الانسان ولتصنع الحضارة الانسانية ـ سياسية واقتصادية ، فلسفية وثقافية ، علمية وعملية .

**البعث والانبعاث :**

من طوابع الرسالات الالهية طابع البعث ، وهو يعني في حد ذاته ثورة حيوية لاحياء الانسان بعد موته ولتحريكه عن سكونه ، ولايقاظه عن نومه ، ولذكره عن نسيانه .

ان البعث ضد الركود ، هو تقدم بعد تأخر ، وسير نحو الكمال بعد الوقفة او بعد التأخر الى القهقرى .

**اهداف البعثات الرسالية :**

اننا نجد حجر الاساس في تأخر الانسان الخلافات العارمة المتحكمة بين افراد هذا النوع وجماعته :

ثم نجد حجر الاساس في ابتعاث النبيين ، الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وتوحيد الكلمة على القسط والعدل « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس

فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ( ٢ : ٢١٣ ) .

وتوحيد العقيدة من احسن السبل لتوحيد الانسان في كافة المجالات الحيوية ، وقد تكفّله رجالات الوحي وكتابات الوحي اذ بعثوا لرفع الجهل ، وللتعليم والتزكية.

ونجد انهم بعثوا ايضا لتثقيف البشر واخراجه عن ظلمات الجهل والاوهام الى نور العلم والتقدم : « لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ( ٣ : ١٦٤ ) .

بعثا لمعرفة الله وعبادته والخروج عن عبادة الطواغيت « ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا لله واجتنبوا الطاغوت » ( ١٦ : ٣٦ ) .

بعثا لمحاربة الظلم والجور : « ألم تر الى الملإ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا

من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » ( ٢ : ٢٤٦ ) .

يبعث الله تعالى طالوت ملكا عادلا ليدفع جالوت ويقضي عليه وقد قضى ، ورغم ما كانت تزعمه بنو اسرائيل وتحتمه من شروط الملك من كثرة المال والعشيرة . فان الله يبعث من عنده العلم والقدرة والعدالة ، شروطا اصيلة للزعامة : « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم » ( ٢ : ٢٤٧ ) .

تعني الآية ان الزعامة والملك خاصة بالله تعالى وبمن يرضاه مَلِكا ، وهم الذين عندهم العلم والشجاعة والعدالة لكي تصبح الشعوب في ظل حكمهم على رغد الامن والعيش :

ولقد كانت الغلبة اذ ذاك لجند الله وحزبه بمن فيهم من الصالحين وعلى رأسهم داود : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت

وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين ( ٢ : ٢٥١ ) .

هزموهم باذن الله لصمودهم في سبيل الله وتصميمهم على استرجاع حقوق المظلومين ، رغم انهم كانوا من الاقلية الشاردة المتفرقة ، قبل أن يبعث الله فيهم طالوت ملكا : « ... فلما جاوزه هو ( طالوت ) والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » ( ٢ : ٢٤٩ ) .

ولقد كان ابتعاث رجالات الوحي طوال التاريخ الرسالي لبعث البشرية نحو العقل والعلم والعدل والتقدم في كافة الكمالات الانسانية وما نراه من التقدم في غير المؤمنين انما هو مقتبس من رجال الوحي ، فانهم انبعثوا لاخراج الناس من الظلمات الى النور ، من ظلمات الظلم والظلام العقائدي والسياسي والاقتصادي والثقافي، وكما نلمس كل ذلك من دعوات الانبياء (ع) .

**موسى وفرعون :**

يبعث الله موسى واخاه هارون الى طاغية زمانه

فرعون ، الذي استخف قومه فأطاعوه واستعبد بني اسرائيل يقتل أبناهم ويستحيي نساءهم، ويرتكب كل عملية جبارة لا انسانية شريرة بحق المظلومين المحطمين . فيبعث الله موسى لانجاء المظلومين والقضاء على القرعونية الجبارة :

**فرعون الطاغية :**

ففرعون حسب القرآن من طغاة التاريخ الكبار ، كان يسوم بني اسرائيل سوء العذاب ( ٢ : ٤٩ ) ويكفر بآيات الله ( ٨ : ٥٢ ) وانه على في الارض وأسرف ( ١٠ : ٨٣ ) واحتكر الاموال والزينة ( ١٠ : ٨٨ ) وطغى الى حد ادعى الالوهية ( ٢٠ : ٤٣ ) ( ٢٨ : ٣٨ ) على في الارض ( ٢٠ : ٤٣ ) ( ٢٨ : ٣٨ ) وجعل اهلها شيعا ( ٢٨ : ٤ ) .

فبعث الله اليه موسى وهارون ليكسرا ثورة بغيه وغيّه ويخلصا الشعب المظلوم من ظلمه وجوره : اذ هبا الى فرعون انه طغى ( ٢٠ : ٤٣ ) فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين ( ٢٦ : ١٦ ) .

هنا نرى بحرا من العلم والحنان قبال عالم من الجهل. فرعون الملك يجابه موسى النبي بكل جهل وغباوة ، مستمدا معتمدا على قدرته وملكه ، وموسى يواصل في دعوته ببرهان مبين :

« قال فرعون وما رب العالمين : قال رب السماوات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين • قال لمن حوله ألا تستمعون • قال ربكم ورب آباءكم الاولين • قال ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون • قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون • قال لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين ( ٢٦ : ٢٣ ــ ٢٩ ) •

**نمـــرود :**

ونرى ابراهيم حسب القرآن كيف يحاول في اخراج قومه من ذل الجهل وذل الاستعمار النمرودي • وكيف يجابه نمرود الطاغية بكل ما يملكه من صمود وبرهان : « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان اتاه الله الملك اذ قـــال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قا لوأنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ( ٢ : ٢٥٨ ) اذ قال لابيه وقومـــه مـــاذا تعبدون • أإفكا آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب العالمين • فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم • فتولوا عنه مدبرين • فراغ الى آلهتهم ضربا باليمين • فأقبلوا اليـــه يزفون • قال أتعبدون ما تنحتون • والله خلقكم ومـــا تعملون • قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم • فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين ( ٣٧ : ٨٥ ــ ٩٨ ) •

... ونرى من كافة رجالات الوحي انهم الدعاة الى كافة الحضارات الفكرية والعقائدية والعملية ، وهم الصناع للتقدم بكل ما يعنيه في النواحي الانسانية .

أجل وان دراسة تاريخ الانبياء تعرفنا انهم هم أصول الدعوة الى الحضارات وانهم صناع الحضارات .

ثم نرى كل جمود وتأخر في التاريخ الانساني انه من جراء العقلية الانسانية المتحللة عن الوحي وعن دعـــوات رجالات الوحي ، مهما كان البشر متقدما في الشهـوات الحيوانية ، فانه تقدم نحو الحيوانية وتأخر عن الحيـــاة الانسانية .

ثم نرى كل حركة صالحـة في التاريخ ، حركة فكرية او سياسية او اقتصادية او ثقافيـة نرى الكل من نتائج دعوات الانبياء ، واليك جولة مقارنة في عمـق التاريخ ، نختصر تاريخ الحضارات المتحللة عن الديانات الالهيـة ـ والمتحلية بها ـ والمازجة بين الامرين ـ ولكي نلمـس هذا الواقع المجهول المنكور .

ان رجالات الوحي حياتهم ثورة هدامة ضد الظلـــم وفي سبيل احقاق حقوق المظلومين .

**صـالـح :**

فقد نرى صالحا انبعث في سبيل الاصلاح رغم كـل

العرقلات ضده من قبل المترفين الاقويـــاء : « والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم اله غيره » • •• واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين • قـــال الملاء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون • قال الذين استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون • فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكـــم ولكن لا تحبون الناصحين » ( ٧ : ٧٣ ــ ٧٩ ) ••• قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا ان نعبد مـــا يعبد آباءنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب • قـــال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير ( ١١ : ٦٢ ــ ٦٣ ) •

«اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون • اني لكم رسول امين • فاتقوا الله واطيعون • وما اسألكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين • أتتركون في ما ههنا آمنين • في جنات وعيون وزروع ونخل طلعهـــا هضيم • وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين • فاتقوا الله واطيعـــون • ولا تطيعوا امر المسرفين • الذين يفســـــدون في الارض ولا

يصلحون • قالوا انما أنت من المسحَّرين ( ٦٣ : ١٤٢ — ١٥٢ ) •

**شعيب :**

« كذب اصحاب الايكة المرسلين • اذ قال لهم شعيب ألا تتقون • اني لكم رسول امين • فاتقوا الله واطيعون • وما اسألكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين • اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين،وزنوا بالقسطاس المستقيم • ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين •• قالوا انما انت من المسحرين ( ٢٦ : ١٧٦ — ١٨٢ ) •

وهكذا نرى انبياء الله يصلحون طوال التاريخ الحياة العقلية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية ، ويحاربون السلطات الكافرة المترفة •

فهؤلاء وحدهم هم الذين يخدمون الثقافة والحضارة الانسانية لا سواهم ، وسوف نتحدث عن مدى تأثير الاديان في الحضارة ولا سيما الديانة الاسلامية التي حضرت كل الشعوب التي تمسكت بمبدئها كعقيدة وايمان وعمل •• وحضرت سواهم ما تمسكوا وبقدر ما تمسكوا بتعليماته المتقدمة •

# مختصر تاريخ الحضارات

لنعلم قبل الخوض في استعراض تاريخ الحضارات • اننا نعني من الحضارة هنا ما يلائم الانسان في حياته الانسانية ، ومن ضمنها حياته الحيوانية ، التي يجب ان تستخدم لترقيته في الجانب الانساني ايضا •

فالحضارة الانسانية هي الحياة على ضوء العقل والعدل والعطف والحنان والوحدة ، وكل ذلك نجدها بأكملها في الديانات الالهية ، ومهما يوجد حضارة كهذه للبشر كانت ناتجة عن اتباع مكاتب الوحي الالهي ، ومهما يوجد تأخر واختلاف وتقهقر في العلم والعقل وسائر ما الى ذلك من بواعث العيث والفساد والبوار والدمار ، نجدها من دوافع الروح الحيوانية والظلم والاستبداد•

فلقد نرى نضالا دائما بين مكتبين طوال التاريخ : ١ ــ الدعوة الى الحق ــ ٢ ــ الدعوة الى الباطل ــ والباطل من الدوافع الحيوانية للانسان المتحلل عن وحي السماء ، المقتنع بالجانب الحيواني من الحياة •

اننا نجد فكرة الاله الواحد المجرد ، وفكرة المعاد والحياة بعد الموت ، وفكرة ضرورة البعثات الرسالية الالهية لدعم الانسان فيما يعجز عنه اصليا أو فرعيا • وفكرة ضرورة العدالة والوحدةوالمحبة ، وفكرة ضرورة السعي لاسعاد الحياة دنيا وعقبى ، وفكرة ضرورة التعقل والتقدم في العلم والعقل ، وما الى ذلك من الفِكَر التقدمية الحضارية : نجدها كلها وزيادة في وحي السماء••

وكما نجد الفِكَر الوثنيةالخرافيةالجارفة، واستقلال كل انسان بما يريد واستغلاله غيره كما يهوى ويريد ، وفكرة الظلم والتعدي في الأصل الحيواني : « الغاية تبرر الوسيلة » باعتبار ان الغاية جمع الاموال والبطر في المعيشة والحرية المطلقة فيها مهما اصطدمت حرية الاخرين ، والفكرة السامة القاتلة « فرق تسد » وفكرة الاستبداد والسيطرة على الحكم بالسيف والنار ، وفكرة استثمار الناس واستحمارهم •• وما الى ذلك من الفِكَر المتأخرة الوحشية اللاانسانية ، نجدها وامثالها في المكاتب المعارضة لمكاتب الوحي •

وأخيرا نجد مزيجا من لوني الفكر بين أقوام طوال التاريخ ، جمعوا بين الضدين وخلطوا بين الحق والباطل•

فهل يا ترى اي الفرق الثلاث اسعد وانجح في الحياة،

وأريح في معطيات ومتطلبات الحياة . أجدك أيها الانسان العاقل المنصف تعطي الحق للفكر الناتجة عن وحي السماء ، كلما كان الاعتناق بها وتطبيقها أكثر فالحضارة الانسانية على ضوئها أكثر ..

ولكننا بالرغم من نصوع هذه الحقيقة نجد الدعايات الزور ترى : ان الحضارة كل الحضارة هي التحلل عن وحي السماء وكما نراها في المسيحيين انهم اخذوا في التقدم منذ تركوا الانجيل والكنائس ! . .

والجواب ان الكنائس وهذا الانجيل الدخيل، انهما كانا حجر عثرة في سبيل التقدم العلمي والصناعي للمسيحيين ، اعتبارا بانحراف الانجيل عن وحي السماء الى وحي الخرافات التي تدخلت في الانجيل .. لذلك نجد ترك الكنائس والانجيل تركا للخرافات البشرية المجمدة للطاقات الانسانية ...

وكما نرى ان ترك القرآن ـ منذ ترك فيما بين المسلمين ـ كيف سبب في تأخر المسلمين بعدما استفادوا من نضارة الحضارة على ضوء القرآن في القرون الاولى الاسلامية .

فكان سبب تقدم المسلمين في القديم تمسكهم بالقرآن،

ولما تركوه أخذوا في التأخر والذلة والمسكنة ، على عكس المسيحيين : ان ترك الانجيل والكنائس ، واعتبارها شكلا يتستر به المسيحي ورائه ، هذا أصبح نقطة انطلاق للغرب في التقدم ، اضافة الى ما استفادوه من التعاليم الاسلامية المشرقة ولا يزالون .

وسوف نبحث في البحوث المقارنة بين الأديان ، أن الدين الالهي لا يسبب ولن يسبب التأخر في وجه من الوجوه ، وانما هذا التأخر المشهود بينالبعض من معتنقيه، انما هو من جراء تركهم للتمسك بالدين الالهي الخالص ، وجعله في زاوية القداسة دون ان يعيشوا معه في الحياة ، او من تحريفهم للدين بما يجمده ويؤخره عن العقل وعن الحياة كما نراه في المسيحية واليهودية .

وانه كلما كان نصيب الدينيين من صميم الدين ـ عقائديا وعمليا ـ أكثر ، كان تقدمهم في الحضارة الانسانية أكثر ، وكلما جرد الدين عن هاتين الدعامتين او احداهما كان التأخر في الحضارة أبين وأظهر .

**القدس :**
**مهد الديانات واصلها ومبداها :**

ان التاريخ الاسلامي المشرق انما يتجلى قبل كل شيء في تطور الاديان التي بزغت في هذا الجزء الفريد

من كوكبنا الارضي ، وقد انتشر الاسلام على الارض التي سبق لها ان مهدت لنشأة اليهودية والمسيحية ، ومن ثم فان الديانات الثلاث الكبار التي قدر أن تتقاسم العالم المتحضر فيما بينها ، قد ازدهرت بالتوالي على نفس التربة القاحلة ، اذ يقع بيت المقدس على مسيرة بضعة ايام من جبل سيناء ، والمسافة من هذا الجبل المقدس حتى مكة لا تكاد تكون أكثر طولا ، ويزداد عجبنا في بيت المقدس حيث تختلط آثار الاماكن المقدسة ، فعلى بضع خطوات من قبر السيد المسيح عليه السلام أقيم جامع عمر ، وفوق أساس معبد سليمان ، قدس أقداس الاسرائيليين ، وفي وسط هذا الجامع المحاط بسور من حديد أقامه الجنود الصليبيون توجد الصخرة التي صعد منها محمد الرسول (ص) الى معراجه ، وقد استخدمت هذه الصخرة قبلئذ كمذبح للقرابين خلال الف من السنوات ،وهناك وهب للعذراء الابن يسوع .

**التقدم ـ الرجعية ـ الحضارة ـ العقلية الحديثة ...**

هذه الكلمات وأمثالها تتداول على ألسنتنا اليوم أو تشيع في كتاباتنا الفكرية ، دون أن نعطي هذه الالفاظ مفاهيمها العلمية الدقيقة او محتواها التاريخي .. ومن هنا كان الخطأ في التفكير والابهام فيه بالقياس لانفسنا ،

في نظرنا الى الماضي والحاضر والمستقبل ، فكم نسمع عن دعوات للاصلاح ، او نقرأ عـن ضرورة تأسيس نهضتنـا الحديثة على فلسفة كونية او كيانية شاملة ، لكنك لا تجد هنا اكثر من ألفاظ مكبرة يتجاهل أصحابها ان الحقيقـة ليست في اطلاق أحكام كلية او تعليمات جارفة .

ونحن اذ نسبر أغوار التاريخ لاستعراض الحضارات يجب علينـا اولا أن نعـرف ما هو المعيـار في التقـدم والحضارة الانسانية ، وما هو حجر الاساس فيهـا لكي لا يخلط علينا الامر .

فلنعلم قبل كل شيء أننا بصدد البحث عن الحضارة الانسانية من حيث الانسان لا الجماد والحيوان ولا مكائن العمل .. لا ــ الا حضارة الانسان التي تتمثل على الاكثر في النضارة الروحية والعقلية ، وتظهـر في كافة مظاهـر الحيـاة كانسان : في حسـن التعقـل وحسن السياسة والاقتصاد والعدل والعلم الواسع .

**الحضـــارات :**

**الحضـارة المصريـة :**

المصريون خليط من عناصر متعددة لا يغلب فيهـا أصل معين ، بعضهم أتى من بلاد النوبة في الجنوب أو من ليبيا في الغرب او من الفئات السامية في الشرق او الحامية

في الشمال ، تمازجت كل هذه العناصر في وادي النيل فكونت شعبا لا يزال حتى اليوم محافظا على ميزاته .

ومع تراكم الرواسب ( الطمى ) التي تجرفها مياه النيل اتسعت المناطق الزراعية تستوعب قادمين جددا ، وأدى التزواج بين العناصر المختلفة الى تجدد دائم في الدم ، ما زادها حيوية وقدرة على الانتاج ، فأتيح للمصريين أن يشيدوا احدى أقدم الحضارات في العالم .

ضرورة الحياة الجماعية فرضت تكون القرى وتمكين الوحدة بين السكان ، وفرضت طبيعة البلاد على سكانها ان ينقسموا الى مجموعتين هما : مصر العليا ومصر السفلى ، فالعليا هي منطقة ( فيّوم ) والسفلى ( الدلتا ) .

قد مرت على السفلى في طور نشأتها نفس المراحل التي عرفتها العليا واختلاف مناخ وجغرافية المصرين أنتج التناقض بينهما وتمكن العداء بين شطري مصر .

فان العليا انعزلت في واد ضيق الافق محدود المدى قريب من الصحراء بعيد عن التأثرات الحضارية ، ولكن السفلى فطبيعتها أغنى والطقس أرحم والتأثيرات الحضارية أقرب منالا والانفتاح على العالم الخارجي أسهم في التقدم والرقي ، فغدا طبيعيا العداء بين العليا والسفلى .

ظروف الحياة القاسية هيأت في الجنـوب رجـالا أشداء قادهم مليكم ( نارمر ) او ( ميناس ) في حملتين على الشمال وفرض الوحدة بالقوة ، اذ ذاك تبدلت النظرة الى الملك فاكتسب صفة الهية وعرف باسمه الجديد (الفرعون) او ( الصرح الكبير ) ٠

**تاريـخ المصريـين :**

مر التاريخ المصري بعد الوحدة بأربع مراحل تخللتها فترات انتقاليـة :

١ ــ الدولة القديمة ( من ٣٢٠٠ ق٠م٠ الى ٢١١١ ق٠م٠ ) وانتهت هذه الدولـة بثورات حدّت من سلطـة الفراعنة حيال طبقة الاشراف ونجم عنها تأخر في الحيـاة الاقتصادية ٠

٢ ــ الدولة الوسطى : ( مـن ٢١١١ ق٠م٠ الـى ١٥٨٦ ق٠م٠ ) أدى ازدهار البلاد الى طمع قبائل البدو ( الهكوس ) ( الملوك الرعاة ) بها ٠ فغزوها وأخضعـوا أهلها بفضل عرباتهم وأسلحتهم البرونزية ــ وأعلنوا أنفسهم فراعنة وشادوا مدينة « افاريس » في الدلتا عاصمة لهم ٠

٣ ــ الدولة الحديثـة ( مـن ١٥٨٦ ق٠م٠ الـى

١١٠١ ق٠م٠ ) كانت غزوة الهكوس درسا تلقاه المصريون فصمموا على التوسع في الخارج حتى لا يفاجأوا في عقر دارهم فاحتلوا سوريا ولبنان حتى كركميش على الفرات٠ وانتصر الفرعون ( تحوطمس ) الثالث في معركة مجدّو ( ١٤٧٩ ق٠م٠ ) على امراء سوريا واحتل قادش فامتدت السلطة المصرية حتى الفرات ٠

وخلال ملك الفرعون ( اخناتون ) هزت مصر ثورة دينية وضعفت السلطة الملكية ٠

**الطبقيـــة :**

كانت الطبقية أساسا في المجتمع المصري ، بين الطبقة العليا الحاكمة والعامة المحكومة والحاكمة هي المستأثـرة المستبدة بمقدرات البلاد وأهلها وهم :

الفراعنة والنبلاء والـوزير والكهنة والموظفـون والكتبـة ٠

كما العامة المحكومة هم : الفلاحـون والعمـال والجيش والعبيـد ٠

**فـرعـون :**

ولفظة فرعون مشتقة من FERAA فرآ ومعناها « الصرح الكبير » ٠ وقد عنت هذه التسمية في الاصـل

القصر الملكي ثم ما لبث أن دلت على الفرعون نفسه .

ويجمع الفرعون بين السلطتين الزمنية والدينية : انه ملك اله حيث أصبح الها بعد أن كان يمثله واستقر الرأي أنه ابن الاله رع ..

فكل ما في البلاد من أموال وأشخاص يتعلق بالفرعون والطاعة له عمياء .

والنبلاء هم حاشية فرعون يعاونونه في حكم البلاد .

ثم الطبقة المحكومة هم المقيمون على خدمة الطبقة العليا وحياتهم حياة الاستعباد وهم مرتبطون بالارض ، اذا بيعت بيعوا بضمنها ، فلا يملكون أنفسهم وأموالهم بجنب الطبقة الحاكمة .

يجب على الفلاح دفع الضرائب المرهقة والا تعرض للضرب مع عائلته ـ وعليه أن يصبر على الجوع والتقشف اذا انجلت الارض ـ وقد يطرد العامل من أرضه اذا لم يدفع أو لم يستطع أن يدفع الضريبة لان الارض ملك فرعون .

**العمـــل :**

لم تكن حال العمال بأحسن من الفلاحين ، فمعظم انتاجهم لا يكاد يكفي الحاجات الاستهلاكية ولذلك

بدأوا في عملهم كموظفين لدى الفرعون والكهنة والنبلاء وأتيح لبعضهم أن يكونوا أحـرارا في مهنتهم • وعلى أية حال لم تكن لليد العاملـة أية قيمـة في الجـو الفرعوني الطاغي والبنايات العالية في تلك الزمن أصدق شاهد على مبلغ جهودهم ومدى أتعابهم •

**الجيـش :**

ان حياة الجند في مصر كانت مرهقـة جدا ـ لان معظمهم كانوا مشاة ـ والاسلحة اقتصرت في البدء علـى السيوف والعصي وأخيرا ظهرت عربات الحرب •

**العبيـد :**

وهم في أدنى درجات المجتمع ، تكاثر عددهـم في مصر فاضطر الفرعـون رعمسيس الثالث أن يقيـم لهـم معسكرات وأن يجبرهم على العمل في الحقول ، وبعـد ذلك أذن لهم بالزواج والعمل والفلاحة كسائر العمـال والفلاحين واستفاد منهم فرعون في تدعيـم مركزه فعلت بذلك مرتبة العبيد شيئا ما •

مع كل ذلك فقد كانت الحضارة المصرية فائقة على كافة الحضارات وقتذاك ، يتبين هذا من نفوذهم السياسي والاقتصادي •

وزاد في تفوقهم ازدهار بلادهم الاقتصادي واشعاعها

الحضارة وتوسع دولتهم في الخارج ففرضوا تأثيراتهم على فينقيا وسوريا ولبنان وسواها .

## الكتابة والآداب والعلوم

### الكتابة ـ مراحلها :

اعتبارا أن الفكر كان مسخرا للدين بدا طبيعيا أن تتخذ الكتابة صيغة مقدسة فتسمى باسم ( الهيروغليفية ) أي الصور المقدسة .

### المرحلة الصوتية :

وقد مرت الهيروغليفية شأن كل الكتابات بمرحلة أولية تصويرية حيث الصورة تعبر عن الفكرة ولكن هذه الصورة غير دقيقة في اداء المعنى وقابلة للتأويل في غير المراد ـ أو عاجزة أحيانا عن اداء المراد ـ فكيف يعبر مثلا من الكذب ؟ ـ الا انهم لتمييز الاسم من الفعل جعلوا اشارة خاصة تتبع الفعل دائما .

### المقطع الصوتي :

هذه هي المرحلة الثانية حيث تعبر الصورة عن مقطع كلمة فتحتفظ بقيمتها الصوتية فقط ثم كانوا يخلطون الكلمات التصويرية والصوتية وزادت هذه الطريقة الثالثة في مشقة القراءة وقد وصل عدد رمزها الى السبعمائة .

**العلـــوم :**

كان المصريون من أول من قسم السنـــة الى اثنـــي عشر شهرا وجعل اليوم أربعا وعشرين ساعة ــ يقيسونها بواسطة الساعات المائية ليلا والشمسية نهارا .

**التقـويـم :**

وعرفوا التقويم منذ ٢٥ قرنا قبل الميلاد فقد لاحظوا أن فيضان النيل يتكرر باتتظام مدهش فأخذوا يعـدون الايام التي تفصل بين فيضانين حتى استقر رأيهـم علـى العدد ٣٦٥ يوما ــ فكانت ( السنة النيلية ) وقسموا هذه السنة الى أربعة فصول أولها ( فصل الفيضانات ) .

وثمة آثار تدل أنهم عرفوا التقويم القمري ولكـن الكهنة فقط اعتمدوه ولضرورات دينيـة ــ وكان مبـدأ تاريخهم بداية حكم كل فرعون ــ حتى اذا انتهى حكـم كل انتهى التاريخ وابتدأ من بداية حكم الفرعون التالي .

**الاعـــداد :**

ظلت معرفة المصريين بالاعداد محدودة . وجهلـوا الصفر . وكـان العـدد الاول يرمز اليـه بخط عمودي ويتكرر بقدر ما يريدونه من مرات ــ حتى اذا وصلوا الى

العشرة رمزوا اليه بـ ( ∩ ) والمائـة (𓍢) ولكنهم طوروا علم الحساب واتخذوا من الجمع أساسا لعمليتـي الضرب والقسمة وعرفـوا الكسور دون أن يطوروهـا فتوقفوا عنـد الثلثين $\frac{٢}{٣}$ والثلاثة أرباع $\frac{٣}{٤}$

**الهنـدسـة :**

وبرعوا في هندسة المساحة لحاجتهم اليها في تحديد الممتلكات ـ لان النيل كلما فاض بدّل المعالم فيقتضي اذا بعد كل فيضان أن تعاد الحدود الى ما كانت عليه سابقـا وبالنسبة لهندسة البناء أيضا عرفوا المساحة في المستطيلات والمثلثات والدوائر •

**الطـب :**

تقدم المصريون في الطب فأتيح لهم أن يتعرفوا الى الجسم البشري وأعضائه وساعدتهم في ذلك عقيدة الحياة بعد الموت واشتراطهم لاستمرارها أن يسلم الجسد مـن التلف ومن هنا كان اهتمامهم بالتحنيط •

**الحيـاة الآخـرة :**

يقوم التمثال المودع في القبر مقام صاحبه فتستمـر علاقة روحه بجسده • اذ الاندفاع الحيوي يلازم الجسد

خلال الفترة التي تلي الموت مباشرة • ثم يتولى نفث الحياة في خياشيم الميت ( طير ) يجثم فوق رأسه ويمسك في مخالبه رمز الحياة • وبهذا يؤمن له استمرار الحياة •

وقد عبر المصريون عن الاندفاع الحيوي بلفظة ( خا ) وعن الطير بلفظة ( يا ) وعن الكائن المنتصر الميت بلفظة ( أخ ) وهذه الثلاثة هي الانسان نفسه بعد الموت وهو رفض لفكرة الموت •

واعتقدوا أيضا ميزان الاعمال بعد الموت • وجزاء كل عمل حسبه اذ ذاك •

**انتصار الدين :**

واعتبارا بأنه لا سبيل للانسان الى فهم الحياة بعد الموت والتأكد منها ، فهذه العقيدة ليست الا من الديانات الالهية • وان كانت مزيجة بالخرافات الوثنية ، ونرى أثرها في هذه الحياة كسر الطغيان والعصيان البشري •

وبما أن البشر طبيعته الطغيان والاستبداد، فالثورات الهدامة للعروش الفرعونية كانت بطبيعة الحال بالتوجيهات المتواصلة من رجالات الوحي،وكما نرى اسحاق ويعقوب ويوسف وموسى و ••• حاربوا الفرعونية وانتهى الامر الى غرق فرعون الطاغية وجنوده في اليم ، في ملاحقته موسى وبني اسرائيل ، على حد تعبير التوراة والقرآن •

ونرى القضاء على النظام الطبقي العارم بين المالك والمملوك نراها من رجالات الوحي الذين بعثوا لتخليص البشر عن الانحرافات والانجرافات المعنوية والاقتصادية.

نرى موسى يبعث الى فرعون ليكسر طاغيته على بني اسرائيل ويرسلهم معه ويحررهم من أسر الذلة والعبودية .

ونرى كل الفكر الحضارية والتقدمية في مصر ناتجة عن وحي السماء مضافا الى وحي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

فرسل الله من خارج ذات الانسان:( الانبياء ) ، ومن داخله :( العقول والفطر ) يتشاطران في تقويم الحضارة الانسانية وتقديمها ولا يزال .

صحيح أن الانسان بمقتضى متطلبات الحياة وحاجياتها مندفع الى الحضارة، الا أن هذا الاندفاع ليس الا من وحي الفطرة التي فطره الله عليها ، ثم هو بحاجة ضرورية في تعديل وتنظيم الحضارة الى وحي السماء ، لكي لا يطغى عن عمد او جهل ، ولكي يستعين بوحي السماء في تقدمه الى نضارة الحياة روحية ومادية . وفي كلمة جامعة : لكي يتقدم الى حضارة انسانية خالصة عما يصطدمها ماديا او معنويا دنيويا او آخرويا .

موسى الرسول ( ع ) يأتي في التوراة بكافة نظم الحياة ، لذلك نرى نضارة وحضارة في بني اسرائيل ما داموا اتبعوا موسى في الشريعة .. ثم لما كفروا وكذبوا تفرقوا وذلوا ..

**حضارات ما بين النهرين :**

بين بادية الشام ومرتفعات ايران منخفض صحراوي يعبره نهر دجلة والفرات فيحولانه الى سهل خصيب نسميه اليوم العراق . عرف أقدم الحضارات في العالم .

تركزت الحياة في البدء عند الطرف الجنوبي من البلاد ، وهنالك أنشأ السومريون أقدم حضارات العالم، ثم تتالت هجرات القبائل السامية من بلاد ( امورو ) وشادت ( اكاد ) ثم ( بابل ) ثم ( الاشوريون ) واتخذوا اشور ثم نينوى عاصمة لهم، وأخيرا انتقلت مقاليد الامور الى ( الكلدانيين ) فأعادوا بابل الى سابق مجدها ، فتكوّن خمس دول قد تعاقبت على بلاد ( ما بين النهرين ) .

**دول ما بين النهرين :**

نرى خمس دول تواترت على ما بين النهرين .

السومريون ـ الاكاديون ـ البابليون ـ الاشوريون ـ الكلدانيون .

**السومريـون :**

هم أغراب عن بلاد ما بين النهرين ، من مناطق جبلية عالية وغنية بالنحاس ( ايران ــ القفقاس ــ الاناضول ) حلوا في الجنوب عند مصبي دجلة والفرات حوالي العـام ٣٢٠٠ ق٠م٠ وأسسوا مدنا أشهرها أور ــ أردلا ــ أومّا ــ لاغاس ــ لارسا ٠

وعهدهم ينقسم الى عهد المدن المستقلة وعهد المملكة المتحدة ــ في المرحلة الثانية قيض لمدينة أومّا ملك قـوي ( لوغال زاجيزى ) فثأر لها وتابع زحفه نحو المدن الاخرى فوحدها في دولة واحدة عاصمتها ( اورك ) وفاخر هـذا الملك ببسط نفوذه من البحر الادنى ( الخليـج العربي ) الى البحر الاعلى ( المتوسط ) ولكـن هذه المملكة لـم تعمر أكثر من ربع قرن وسقطت على يـد ( الاكاديـين ) عام ٢٧٢٥ ق٠ م٠

**الاكـاديـون :**

أصلهم راق لبعض القبائـل الضاربة في بلاد امّورو تكاثر عدد الساميين في موطنهم الجديـد وقام زعيمهـم ( سرجون ) يجمع كلمتهم وشاد عاصمـة جديدة دعاهـا ( اكاد ) ثم حـارب السومريين فغلبهـم ٠ وبذلك سميت

بلاده اكادية ــ وهكذا حل العنصر السامي محل العنصر الاري ــ او الهذي الاوروبي ــ ثم لم تدم هــذه الدولة الا أخذت في الضعف .

**البــابليــون :**

أصلهم بلاد أمّورو مصدر الهجرات السامية المتعاقبة ــ هؤلاء النازحون الجدد استقروا في بابل ( بيت الاله ) واتخذوها عاصمة لهم ووطد سلطتهم فيها ( حمورابــي ) ١٧١٠ ــ ١٦٧٠ ق.م. فاهتم بالفتوح ولكن موته عجل في انهيار الدولة .

**الاشوريــون :**

أصلهم قطــن شمالي بلاد ( الرافدين ) مزيــج مــن شعوب غلب فيها العنصر السامي هم ( الاشوريون ) .

داخل دولةحمورابي بالذات كانت العناصر الاشورية تهيء نفسها لدور فعال في تاريخ البلاد ، فأنشأ أحدهــم : سرجون الاول غير الاكادي منذ عام ١٧٧٥ ق.م. دولــة اقتصرت في البدء على منطقتي ( كردستان ) و ( الموصل ) الحاليتين ، وأعلنت مدينة آشور ثم نينوى عاصمة لهــذه الدولة ، لكن الغزوات الحثيــة التي قضت علــى بابــل اجتاحت بنفس الوقت دولة آشور الفتية .

وما انحسر الخطر الحتي حتى قام ( تغلاّت فلاصّر ) الاول بعيد تنظيم الدولةالآشورية وأعدها حتى استطاعت احتلال آسية الصغرى وفينيقيا وفلسطين ومصر .

**الكلدانيــون :**

أصلهم قبائل سامية نزحت من بلاد ( امّورو ) حتى أواسط العراق وهناك عرفت باسم ( كلدو ) .

تكاثر الكلدانيون في بابل وعمد الآشوريــون الى تعيين أحدهم حاكما على هذه المدينــة .. وقامت دولــة الكلدانيين على أنقاض دولة الآشوريــين وورثت عنهــا السيطــرة علــى البلدان المجاورة أي سوريــا وفلسطين وفينيقيا ومصر أحيانا ، وأعاد الكلدانيون الى بابل مجدها الغابر وازدهرت أيام نبوخذ نصر ، ولكن دولة الكلدانيين هذه لم تعمر قرنا ، ففي عام ٥٣٩ ق.م. ضمها ( قوروش ) الفارسي الى دولته وبزوال الدولة الكلدانية فقدت بــلاد ما بين النهرين استقلالهــا ودخلت في مرحلــة انحطــاط وانهارت حضارتها .

**ديانة ما بين النهرين وفنونهــا :**

لقد سبق القول أنهم كمن سواهم كانوا يعبــدون آلهة شتى ، وهنا نجدهم يعتقــدون ( السومريون ) بــأن

النفس لا تموت ، فهي لدى مفارقتها الجسد تذهب الى أصقاع لا ترجع منها ، وهنالك تستمر في حياة بائسة فقيرة الى الامل ، وحرصوا أن يضعوا مع الميت تمثالا شديد الشبه به ، وكذلك كل ما يعوزه في حياته الثانية مثل مصاغه ومقتنياته الثمينة ، والحضارة السومرية كانت حجر الاساس بالنسبة لديانات ما بين النهرين .

هنا نجد عقيدة الحياة بعد الموت بين السومريين وسواهم من الوثنيين، نجدها من جراء الديانات السماوية، اذ ليس للبشر المتحلل عن وحي السماء سبيل للتعرف الى حالته بعد الموت الا أنهم خلطوا بها خرافات وثنية فجمعوا بين الحق والباطل .

**الفنون :**

لا يمكن الفصل بين الدين والفن حيث الفن يعيش على خدمة العقائد .

اهتم الفنان بابراز معالم الوجه وتقاسيمه ، وتلك ضرورة دينية اذ الغاية من كل تمثال أن يمثل صاحبه في المعبد لترضى الالهة عن صنعه .

**الابنية الدينية :**

وهي كثيرة ومنها المعابد والمقابر وعرفت المعابد

باسم ( الزقورة ) أقدمها ما بنـاه السومريون وأشهرهـا خرج بابل حيث عبد الاله ( نبو ) وتصميـم الزقورة في الاصل من خمس طبقات متدرجة يعلوها المعبد ليكـون قريبا من السماء فيسهل الاتصال بالالهة .

ولقد كانت المعابد والزقورات على قسط ضخم من الغنى فتتلقى يوميا مئات الاضاحي والتقـادم ، ففي ارد مثلا كان نصيب الاله ( ارنو ) يوميا ستين خروفا ومائـة واربعين كيلا من الحنطـة في أواني من الفضة والذهب .

**التأثيرات المتقابلة بين الاديان الالهية والوثنية :**

كما نرى ان هناك تأثيرات هامة من وحي السماء على الوثنيين : من عقيدة الحيـاة بعـد الموت والحساب .. كذلك نرى آثارا وثنية بين الكثـير من معتنقي الاديـان السماوية وكتابات الوحي كالتالي :

ان الاله يسكن السماء ، كمـا نجد ذلك في صـلاة النصارى ، وفي عدة نصوص توراتية وانجيلية ، وأن لـه أبناء ، وأنه صلب ضحية ذنوب عباده ودخل الجحيم ، كما نرى بين المسيحيين ، وأن الاله مركب من الثالوث المقدس كما الثالوثيون المسيحيون يعتقدون ، وأن روح الانسان تبقى بعد الموت ولكن بدنه لا يحيى ، انما الروح هي التي

تجزى ، كما نجده في الانجيل ، وما الى ذلك كما فصلنـاه في كتاب عقائدنا فليراجع .

ولا نجد وحيا سماويا الا نشبت فيه من الخرافـات الوثنية قليلا أم كثيرا ، الا وحي القرآن ، القرآن فحسب، لا والروايات الاسلامية فانها تعرضت بنفس ما تعرضت به الآيات والروايات الاسرائيليةوالمسيحية .

فالقرآن اعتبارا بخلوده بقي محفوظـا عن كل دس وتحريف وكيانه المتفاعل مع العقل والواقع خير شاهـد على عدم تحرفه [1] .

**الفكـر والعلـوم :**

خلفت شعوب ما بين النهرين الكثـير من الآثـار الفكرية ، أحس السومريون بالحاجة الى تدوين أفكارهم فوضعوا أسس كتابة أولية أخذها عنهم ( الاكاديون ) ثم استكملوها فعرفت باسم الكتابة المسمارية لانها كـانت تكتب بآلة دقيقة تشبه المسمار على ألواح طريئـة مـن الدلغان ، ثم تجفف في الشمس .

**التشريـع :**

لم يجمع السومريـون والاكاديـون شرائعهـم في

(١) راجع المقارنات باب عدم تحريف القرآن .

قانون مدون . انما ينسب تدوين القانون الى حمورابي ، فقد اندفع الملك البابلي حمورابي تمثيلا للاله ( مردوخ ) على الارض وكمسؤول عن تنظيم البلاد ، ان يجمع ٢٨٢ مادة تشريعية اقتبسها من التقاليد والقوانين المعمول بها حتى أيامه ، رعاية لملاءمتها لعصره ، والمبدأ الاساسي في قانونه هو : الطبقية والمعاملة بالمثل ، انما بالمثل في نفس الطبقة حيث الميزة الطبقية كانت تمنع من المماثلة أمام القانون اذا كان المتداعيان مختلفي الطبقة .

فمن قانون حمورابي - من قفأ عين رجل حر قفئت عينه ومن قفأ عين مسكين او كسر ذراعه عرضه مثقالا من الفضة ، ومن كسر سن رجل حر كسرت سنه ، ومن كسر سن مسكين عوضه ثلث مثقال من الفضة .

أقول : وهنا ترى خلطا بين وحي السماء في قانون العدل وبين وحي الاستبداد البشري ، فمن ناحية يقر العدل في المعاملة بالمثل ، ومن أخرى يفرق بين بني نوع الانسان في نفس المعاملة، ونجد حق العدل في وحي السماء لا سيما في شريعة الاسلام انه يقضي على الطبقية في الحكم ، وتفريقه بين الذكر والانثى في القصاص وفي الارث وأشباههما ليس الا وفق متطلبات كل في واقعه الفردي والجماعي ، نختصرها في الطبقية الخلقية او الوضعية دون الاختلاقية ، فالطبقية الخلقية او الوضعية

العادلة تسمح بفرق ما بين الطبقين ، وهو أمر بين أمرين ، لا قضاء على الطبقة الضعيفة بالمـرة ، ولا حط للعاليـة خلقيا او وضعيا ، انما عدل في الطبقتين وبينهما .

فاذا نظرنا الى واقع الاناث ــ الواقـع الفعلـي ، والشأني ــ نجدها أقل قيمة في الناحية العقلية والجسمية في كلتا المرحلتين ، فبامكان رجل واحد أن ينتج عشرات الاولاد في سنة واحدة . وليس بامكان امرأة واحدة أن تنتج الا واحدا او الى الخمسة شاذا . وبهذا ترتفع قيمـة الذكر ــ البدنية ــ على الانثى كذلك ، وان كانا في الطاقة العقلية على سواء .

كذلك الانثى في البيئة الاسلامية مثـلا ، تأخذ ولا تعطي الا نادرا ، تأخذ من الوالد والزوج والاولاد نفقة وصداقا ، ولكن الذكـر في كـل هذه المراحل ، يعطي ، فحسب اختلاف التكليف في الانفاق يقرر الاسلام «للذكر مثل حظ الانثيين » ولو أعطينا النظر حقه لوجدنـا أنـه روعي هنا جانب الانثى أكثر من الذكر [1] .

---

(١) فلو كان الارث ثلاثون الفا والوارث ذكر وانثى . نرى الانثى تحفظ نصيبها اذ لا تحتاجها الا نادرا ، وامـا الذكر فهو يدفع النصف من نصيبه على الاقل لشئون زواجه ، وتشاركه زوجته في النصف الآخر، والنتيجة ان الانثى بقي لها نصيبها واشتركت مع نصيب الذكر تاخذ نصفه تماما والنصف الآخر مشاركة ، وهـذه كضابطة اكثرية لا عامة .

**الطـب :**

لم يستقل الطب عن الدين كعلم قائم بذاته ، فالكهنة هم الاطباء يتشددون في الحفاظ على سر المهنة ، كانت معلوماتهم في البدء أولية وما يعجزون عنه علميا يضعـون له تفاسير وأدوية روحية ، فالمريض هو مرتكب خطيئـة تخلى عنه الاله ، ودخل الشيطان جسمـه وأقام يعذبـه فيستدعي الكاهن لشفائه ويصف له عقاقير مرة المـذاق ليتضايق منها الشيطان فيغادر جسد المريض .

والبابليون فيما بعد لم يكتفوا بهذا التفسير الا حين تعييهم الحيلة وقد بذلوا مجهودا كبيرا لتخليص الطب مـن هذه الذهنية المجردة حتى أضحت وسائلهم شبه علمية .

وكلا الطب والجراحة هما من اختصاص الالهة (بو) التي لا تخطىء ، فانما الخطـأ هو الوسيط البشري أي الطبيب .

أقول : .. ولكن وحي السمـاء يفصل بين مرض الروح والجسم : فالاول نتيجـة العصيان ، والثاني لعلل طبيعية سواء أكانت من سوء تصرف الانسان جهـلا او علما ، أو كان عقوبة عليه وامتحانا له فيما عمله من عصيان، والعلاج أيضا نوعان : عـلاج طبيعي باستعمال الادويـة حسب تجويز الطبيب الحاذق ، والتجاء الى الله تعالـى

ان يعافيه ، ويجعل أثرا حاسما في دوائه . والصيغة المختصرة لوحي السماء هنا « العلم علمان علم الاديان وعلم الابدان » .

ولعل من دوافع المصريين في تحريرهم التطبيب اللاهوتي اضافة الى ضرورة الحاجة هو التأثر من وحي السماء الفاصل بين المرضين .

**المجتمع والجيش :**

هنا بعد الملك وهورا من المجتمع نجد طبقات ثلاث : ١ ــ الاحرار ٢ ــ المساكين ٣ ــ العبيد .

فالملك هو صاحب السلطة الزمنية يمثل الاله على الارض دون أن يتخذ صفة الالوهية، تختاره الالهةبواسطة الكهنة واستشارة الكهنة واجب عند انتقال الحكم وهذه الاستشارة تفسح المجال للخروج على مبدء الوراثة في العرش فقد يتحزب الكاهن لشخص دون الآخر مبررين ذلك بالاستجابة لمشيئة الالهة .

والاحرار ــ هم العنصر الرئيسي وهم يملكون ان أزواجهم يسمح لهم ببيعهم لفترة لا تتجاوز ثلاثة أعوام ويحصل هذا عند التقصير عن وفاء دين .

والمساكين ( مشكينو ) أي الفقراء يعيشون في فاقة والعوز أحيانا يدفعهم الى بيع أنفسهم فينحدرون الى

طبقة العبيد ــ لا فراغ في حياتهم اليومية بل عمل مستمر في الحقول والري والعناية بالاقنية .

والعبيد هم الطبقة الدنيا والاخيرة ملك لاسيادهم لا حرية لهم ــ وصلوا الى هذا الوضع نتيجة لاحد أمرين : بعضهم ولد عبدا والبعض الآخر استعبد عن طريق الاسر او البيع وهم على أية حال يفقدون صفتهم الانسانية ليعاملوا كالسلعة او كالحيوان .

هذه هي الطبقية الظالمة اللاانسانية في ما بين النهرين، ثم نرى وحي السماء ولا سيما في الشريعة الاسلامية يحرر الانسان عن عبادة غير الله ويقرر تضامنا أخويا بين الطبقات دون ان يقضي على الطبقية اطلاقا او ان يمضيها اطلاقا بل وسط عدل بين الافراط والتفريط ، فيعطى كل ذي حق حقه المشروع ويفرض على من يفضل عنده المال ان ينفق على الآخرين الى حيث لا يبقى في البيئة الاسلامية أي فقير يموت جوعا او يضطر الى بيع نفسه حيث يدر على العجزة والقاصرين من بيت المال ومن الضرائب المستقيمة وسواها .

فهناك في المجتمع الاسلامي تضامن في كافة المجالات ــ مفروض على كل مسلم حسب طاقته ــ تضامن ثقافي وفكري واقتصادي وسياسي ــ وتضامن في الثقافة

الدينية ـ الى حيث لا تتنازع الطبقات رغم وجودها اذ تطبق كـل طبقـة واجبهـا الانساني والاسلامي تجـاه الآخريـن .

**الرقيـة في نظـر الاسـلام :**

والرق في الاسلام لا يعني عبوديـة انسان لانسان وانما يعني النظام الثقافي الاجباري ، لذلك لا يسمح للحر المسلم ان يبيع نفسه ولا لاحد ان يبتاعه ، وانما يسمـح استعباد أسرى الحرب ـ الكفار ـ وفي استرقاقهم فوائد هامة للذين يسترقونهم وللرقيق أنفسهم أيضا .

أما للاولين فالامان عن شرهم حالة كفرهم اذا بقوا أحرارا ، حيث الحرية للاسرى في بلاد الاسلام لا يؤمـن فيها من افسادهم الديني او السيـاسي او الاقتصادي ، فدفعا لافسادهم ـ بدل أن يقتلوا او يخلدوا في السجن ـ يسترقهم المسلمون لكي يثقفوهم علميا وعمليا ، وهم ازاء ذلك يملكون أعمالهم لصالح الطرفين .

وأما للرقيق أنفسهم فلكي يهتدوا الى الله ، الـى الدين الحق بما يرون ويسمعون من المسلمين في بيوتهـم وضمن معاشرتهم معهم أيا كان .

لذلك كله لا يجوز تحرير العبد الكافر بأي وجـه من الوجوه حتى يؤمن ، ولكنه يجوز تحريـر العبد اذا

آمن ، ويستحب أكيدا وقد يجب : يجب في موارد عـدة من الكفارات والديات ، ويجب أيضا من بـاب الزكـاة « وفي الرقاب » وكذلك اذا أراد الرق المؤمن ان يشتري نفسه أقساطا أو نقدا المعبر عنه في الفقه بالمكاتب بعضـا أو كلا ، أن يتحرر تدريجيا بمقدار ما يدفع من قيمتـه ، او يتحرر في ختام ايفائه القيمة حسب القرار .

وانما لم يفرض الاسلام تحرير الرقيق المؤمنين دون شرط حفاظا على الناحية الاقتصاديـة ، فان المسلـم اذا اشترى رقا كافرا ثم آمن عنده ، اذا يصبح فرض تحريره دون شرط فضلا على الرق فقط واضرارا على مالكـه ، ولكنما الاسلام يراعي الجانبين .

ثم في حالة الرق أيضا ليست للمالك حرية التصرف في الرق ، انما استخدامه للعمل دون العسر والحرج كمـا يستخدم الخادم الحر سواء ، دون ان يملك قتله او ضربه الا لمبرر قانوني كما في الحر .

اذا فالرقية في الاسلام لا تعنـي الا فرض الثقافـة الاسلامية على غير المسلـم ، كمـا الطالب رق للانظمـة المدرسية ، والا رعاية الاقتصاد العادل ، دون رقية القرون الوسطى ـ الفردية الظالمة ـ ودون الرقيـة الجماعيـة الحاضرة في عصر قرن الفضاء : أن تسترق شعوب اطلاقا

لانهم ضعاف ، فيستعبـدون ويستعمـرون ويستثمرون ويعامل معهم ما لا يعامل مع أي حيوان .

ففي الوقت الذي يقررون جمعيات حماية الحيوانات لا تراعى بينهم ولا تحمى حقـوق الانسان و « تلك اذا قسمة ضيزي » .

**كيف يجب ان نعـاشر الرقيـق :**

نرى الاسلام يأمر السادة ان يعاملوا الرقيق كأحسن ما يعامل مع أي انسان حر ، فكما قرر حقوقا لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كذلك يخص الرقاب بنصيب من الانفاقات العامة «ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البـر من آمـن بالله واليوم والآخر والملائكة والكتـاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلـين و « في الرقاب » ( ٢ : ١٧٧ ) » .

يقول « وفي الرقاب » ولا يقول : للرقاب ، دلالـة على الامر باتيان المال في سبيلهم ، سبيل تحريرهم ، وهذه مرة ، ثم اذا كانوا من أحد الصنوف المذكورين في الآيـة يستحقون مرة ثانية ما يستحقه حسب صنفه : ان كـان من ذوي القربى او اليتامى أو المساكين ا وابن السبيـل او السائلين .

وكذلك يعتبر الرقيق من مصاريف الزكاة وهي من الانفاقات الخاصة الواجبة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ( ٩ : ٦٠ ) .

هنا يقدم « وفي الرقاب » على الغارمين ـ لان الغارم من غرم المال ، والرقاب غرموا أنفسهم فهم أحرى أن يبذل في سبيل تحريرهم الزكاة .. وقدموا على سبيل الله أيضا ، اعتبارا ان تحريرهم من أفضل سبيل الله أحيانا ، وعلى ابن السبيل أيضا لانه وان لا يجد سبيلا الى مال يدبر به حاله ولكنه يملك نفسه دون الرقيق .

وثم اذا حرر الرق وكان من المذكورين في آية الزكاة كان له حق آخر اضافة الى ما استوفاه من حق الحرية .

ثم نرى ان كفارة قتل الخطأ وكفارة الصوم وكفارة مظاهرة النساء وأمثالها من كفارات عديدة ، نرى انها تصرف في الرقاب ، خاصة بهم او أنهم من مصارفها « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤآخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم او تحرير رقبة مؤمنة

( ٢ : ٢٥٥ ) « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله .. » ( ٤:٩٢ )• « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » ( ٥٨ : ٣ ) •

هذه واضرابها ، وان كانت خاصة بالرقيق الذين آمنوا اذ كمل دورهم التربوي الاسلامي في بيوت سادتهم المسلمين فليأخذوا حريتهم بشتى الوسائل •

ثم نرى الاسلام كيف يأمر السادة أن يعاشروا رقيقهم مسلمين كانوا أم غير مسلمين •

••ولحد أمر بالزواج معهم وان يزوجوا من الاحرار دون ملاحظة الاختصاصية في باب الزواج « وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم واماءكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » (٢٤:٣٢) •

وكما يأمر بالاحسان الى الوالدين ومن يتلوهما ، كذلك يأمر بالاحسان الى الارقاء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم .. ( ٤ : ٣٦ ) •

كذلك وينهى عن ظلمهم وحملهم على ما لا يطيقون

وكما عن الرسول الاقدس ( ص ) : من لطم مملوكه او ضربه فكفارته عتقة .

وقال (ص) يخاطب أحد أصحابه اذ عيّر مسلما كأنه ابن أمة : أعيرته بأمة ؟ انك امرء فيك جاهلية ، اخوانكم خولكم ( عبيدكم ) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلّبهم فان كلفتموهم فأعينوهم .

وقال ( ص ) : اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم ، أطعموهم مماتأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ولا تعذبوا خلق الله ، فان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم ، لا يدخل الجنة .. وسيئى الملكة .

ويسأل (ص) عبد الله بن عمر قائلا : يا رسول الله (ص) ! كم نعفو عن الخادم اذا أساء ؟ فصمت ( ص ) برهة ثم قال : أعفو عن الخادم كل يوم سبعين مرة .

وقال ( ص ) : اذا أتى أحدكم خادمه بطعام فليجلسه وليأكل معه ، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .

هذه قلة من كثرة من الاخلاق الاسلامية تجاه الارقاء .

فهل من الانصاف ان يتهم الاسلام انه شريعة

الاستعباد ، رغم انه شريعة التحرير ، فلا يعني مـن الرق الا التثقيف اجباريا للاسرى الكفرة في بيوت المسلمين ، والا التجنب عن الفوضى السياسية والدينيـة لو بقـوا أحرارا ، والفوضى الاقتصادية لو حرروا دون شروط ، والا كل خير لصالح الجماعة المسلمة وسواهم • ولكـن العدو اللدود أعمى ، يرمي حيث يشتهي ولا يدري •

يأخذ على الاسلام أنه شريعة الرق ــ رغم انه كان قبل الاسلام بين اليهود والنصارى بحالة فظيعة جدا وانما الاسلام عد لها وأخيرا قضى عليها ، الا فيما يتوجب على المسلمين من التثقيف لاسرى الحرب ••

•• نرجع الى النظام الطبقي لـ : بين النهرين •

ثم نرى الاحرار من هؤلاء الطبقات الثلاث يقتسمون الى : الكهنة والكتبـة والموظفـين والجيش والمالكـين والتجـار •

فللكهنة السلطة الكبيرة منذ أيام السومريين ، فالملك السومري هو الكاهن نفسه ، ومع الفتوح طغت الصبغـة الزمنية دون ان تمحى الصبغة الروحية ، وأخذت سلطـة رجال الدين تتضاعف نتيجـة لاعتقـاد الناس بالسحـر والتنجيم والطلاسم والرقي ، ولكن الملك هو الذي يمثل الاله على الارض وهو رئيس الكهنة •

وهنا نجد خلطا بين الغث والسمين من حق السلطة ، فكون السلطة والحكم حقا لرجال الدين وأن الملك يحق لهم ، ذلك تمثيلا لحكم الله وسلطانه ، هذا حق يقره وحي السمـاء .

وشيء آخر يعارضه الوحي هو كون السلطة للسلطان أيا كان الى حيث اختلقوا له روايات دينية كمثل «السلطان ظل الله في الارض » .

فخير الخير هو الجمع بين السلطة الزمنية والسلطـة الروحية في قدرة واحدة او طبقة واحدة يمثلون حكم الله في عباده وبلاده .

وشر الشر هو هكذا جمع للزعماء الاشرار الظالمين كما يدعيه البعض من سلاطين عصرنا وفي بلادنا .

ثم الخلط بين الحق والباطل نجده في التفريق بـين السلطتين : الزمنية والدينية ، فلكل أهل لا يحـق له ان يتدخل في الآخر .

وشر من الكل ان تُستعبد السلطة الروحية للسلطـة الزمنية ، وهو اتباع رجال الدين لسلطان السياسة الشريرة يأتمرون بأمره ويتبعون هواه كما يريـد ، وحينذاك لا يعني من السلطة الروحية الا روتينية لفظية ليس ورائهـا معنى صالح ، انما تخبيء الشر تحت ستار الخير .. (١)

(١) راجع كتابنا : علي والحاكمون .

الملك ويلقب ملك الملوك او الملك الاكبر (شاهنشاه) اختير دائما من أسرة الاخميديين وهي زعيمة عشائر فرس ، يتولى الحكم بالوراثة الا في حالات استثنائية ، ولم يتخذ الملك صفة الاله بخلاف مصر ، ولما ضمت دولتهم ما بين النهرين اعتبر نفسه ممثلا للاله مردوخ ، ولما أخضعوا مصر اعتبر نفسه ممثلا للاله ( امون ــ رع ) لا ــ بل أمر بأن تقام أنصاب تمثله متعبدا للاله ( امون ــ رع ) .

ومقابل اعراض الملك عن صفة الالهية رأى ان يوطد سلطاته الزمنية ، فأصبح مطلق الصلاحية والتصرف وانحجب عن الناس . فلا يظهر الا في المناسبات الهامة ، لا يجرؤ أحد على المثول دون أذنه ، لا يستقر في عاصمة دائمة ، بل يتنقل بين قصوره في البلاد .

.. أقول هذه الشاهنشاهية الممثلة للاله على حد تعبير الفرس ، هذه خليطة من وحي السماء وألوهية الارض .

أما وحي السماء فباعتبار ان الملوك واجبهم الاول والاخير أن يمثلوا الاله في العدل والرحمة بين الرعية الى حيث قيل عنهم : « السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه

كل مظلوم » وملوك الجور الطغاة استفادوا من أول هذا الحديث وتركوا آخره،رغم أنهم ظلال الشيطان في الارض يأوي اليهم كل شيطان رجيم •

أما ألوهية الارض فاعتبارا باستقرار السلطة الوراثية فيهم ، دون أي شرط وقيد كما الله سلطان اطلاقا ، فهم اعتبروا أنفسهم الهة الارض ، يملكون الارض ومن عليها ، وعلى الناس أن يعبدوهم دون قيد وشرط •

وعلى أية حال فوحي السماء لا يسمح لاحد ان يسيطر على الشعوب هكذا ، ولا ان يتسمى ملك الملوك كما عن الرسول الاعظم محمد ( ص ) « ان أخنع اسم وأشنعه من يسمي نفسه ملك الملوك ــ لا ملك الملوك الا الله » •

وهكذا كل من يريد تحكما على الناس وتهكما وعلوا في الارض كما يشاء فهو من آلهة الارض •

أما الذين لا يهدفون الا تسليط الحكم الالهي فهم عبدة الاله الحق : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا » •

•• هؤلاء ملوك الفرس : آلهة الارض الطواغيت ويليهم النبلاء وهم موظفو الادارة ورجال البلاط وزعماء العشائر وتنتقل سلطتهم بالارث ، وقد احترم الملوك سلطة

هؤلاء النبـلاء وتركوا لهم حرية التصرف فاستفادوا من انحجاب الملوك وعدم اكتراثهم للقضايا الثانوية .

اقول : فقد كانت السلطة الشاهنشاهنية ببلاطهـا وموظفيها آلهة الارض على مختلف درجاتهم ، تنتقل الالوهة فيما بينهم ميراثا دون اية شروط مؤهلة والى زماننا هذا ، والديانات الالهية ولا سيما الاسلام تقضي على الطواغيت مهما كانوا واينما كانوا ، وكما في الكثيـر من الايـات القرآنية ، انها تقضي على طاعة وعبادة الطواغيت وتحصرها بالله الواحد . ولا تشرك في ملكه وحكمه حتى الانبيـاء فضلا عن سواهم ، فانما الحكم لله وللحكام تنفيذ حكم الله تعالى لا سواه .

الشاهنشاهية الايرانية كانت طـوال زمن احـدى الامبراطوريتين العالميتين المسيطرتين على الكرة الارضية ـ لكنها ، رغم عَددها وعُددها سقطت على أيدي المسلمين وهم قلـة في العَدد والعُدد ، انما لامر واحـد هو انهيار الاخلاق والانجذاب الى الشهوات في كافة صور الحياة .. لذلك تغلب عليها المسلمون وجعلوا من هذه الامبراطورية بلدا اسلاميا .. ومن عميق تأثير الاسلام في هذا البلد ان لغة الفرس منذ بزوغ فجر الاسلام فيها ـ اصبحت خليطة من اللغة العربية والفارسية . وانما بلاء هذا البلد الاسلامي

ارتجاعها الى الشاهنشاهية الوراثية ، وتحكم السلطات المستبدة عليها .

**الحضارة الفينيقية :**

فينيقيا منطقة ساحلية تمتد من شمال ( رأس شمرا ) على الشاطىء السوري حتى جبل الكرمل في الجنوب وفي الشرق تحدها سلسلة جبال لبنان الغربية ، واما في الغرب فلها واجهة بحرية عريضة كان لها الفضل في ازدهار الحضارة الفينيقية .

والبحر جعل من فينيقيا بلادا تحتاج اليها الدول الكبرى في ما بين النهرين وفارس ومصر .

عرف الساحل الفينيقي خمسا وعشرين مدينة معظمها قرى كبيرة وأشهرها جبال جبيل وصيدون وصور وأوغاريت وبيروت .

تاريخ فينيقيا حقبات متقطعة من الولاء والتمرد تخللها فترة من الاستقلال الفعلي بدأت مع الالف الاول قبل الميلاد ..

**ديانة الفينيقيين :**

سبق ان لهم آلهة كما كانت لسائر الاقوام الوثنية ، آلهة مختلفة المراتب والبيئات .

وهنا تقتسم الآلهة المعبودة طوال القرون الى ثلاثة :

١ ــ آلهة هي في الحقيقة عبدة لمؤلهيها يصنعون بها ما يشاؤون ، ينحتونها ويقررونها مقر الالوهية كما يشاؤون في درجات الالوهة ، ينصبونها ويعزلونها ويعبدونها كما يريدون ، آلهة عاجزة لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرمون . والقرآن يندد في مئات الآيات بهكذا آلهة .

٢ ــ وآلهة هي القوى المرموزة المجهولة المتهكمة على الكون ، وهي ان كانت فوق الانسان في الطاقات ــ في زعم الانسان ــ الا ان عبادتها ليست الا عبادة المجهول المزعوم من طاقات الكون .

٣ ــ اله واحد معروف بكل الادلة والآيات ، بيده ناصية كل شيء هو خلق الكون بطاقاته ، وهو علة العلل وسبب الاسباب .

والديانات الالهية لها الفكرة الحضارية والتقدمية في التأليه .

فانها تخرج الانسان من ظلمات عبادة عبيده والاصنام المنحوتة بيده ، تخرجه عن ذل عبادة عبيده ، وتخرجه ايضا عن عبادة المجهول المزعوم من الطاقات المرموزة .. تخرجه عن هذه الظلمات العامدة والجاهلة الى عبادة اله واحد يدل على وجوده ووحدته الكون كله .

## النظـام السياسـي الفينيقـي :

### النظـام الملكـي :

ألفت كل مدينة دولة قائمة بذاتها ، على رأسها ملـك وخضع التنظيم السياسي لاعراف وتقاليد وعادات اكتسبـت صفة الدستور المدون •

ان الملكية الفينيقية كانت دستورية لا استبداديـة ( بخلاف الفرس ) بمعنى ان قرارات الملك يجب ان تقترن بموافقة مجلس الشيوخ ، فما كانـت الشروط المفـروض توفرها في هذا الملك ؟ وما هي حدودها ؟

الملك في أي المدن الفينيقية يتحدر من سلالة محترمة بل مقدسة ، ويحافظ على احترام الناس بما يبدر منه مـن تصرفات تجعله مستحقا للتقدير ورمزا للدولة ، وهذا يفرض مسؤوليات ضخمة على الملك ان يضطلع بها ، فهو في الوقت عينه مسؤول عن حماية المدينة يتقدم جيشه في القتال وهو قائد الاسطول ، وهو الذي يسهر على الامن ويقيم العـدل ويؤدي الحساب امام الالهة ومجلس الشيوخ في آنواحد ، فاذا قصر عزل •

ومثل هذه الكفاءة لا تتوفر دائما في بكرالعائلة ، لذا وان يكن العرش وراثيا ، فليس مـن الضروري ان ينصب الابن البكر ، فأعطي الملك حق اختيار وريثه من بين ابنائه الذكور، وانكان قاصرا اضطلعت والدته بمسؤولية الوصاية حتى يكبر •

**النظـام الجمهـوري :**

وطبيعي ايضا ان لا تجتمع هذه الصفات في الوريث ايا كان ، فيقتضي الظرف ان تلجأ المدينة الى شخص آخر غريب فيه الكفاءات ، لذلك يتفق المؤرخون بأن الانتقـال من النظام الملكي الى النظام الجمهوري قد حدث في ظروف طبيعية .

اقول : وليس بقاء النظام الملكي في بعض البلاد وحتى الان الا خروجا عما تقتضيه الظروف الطبيعيـة سياسيـة واقتصادية واجتماعية ، وارتجاعا الى الجاهلية الاولى بقوة السيف والنار .

ان تدريجية النظام ، مع الحفاظ على ضرورة السلطة الحاكمة في كل نظام ، انها تحكم اولا وقبل استكمـال الاجتماعات ، تحكم بالنظـام الملكي الاستبدادي الوراثي ثم تعديلا له فرارا عن الظلم الناتج عن هكذا نظام ، الـى الملكي الدستوري ، ثم تكميلا له وفرارا عن فقر اللاكفاءة في الوارث ، الى النظام الجمهوري ..

ومن كل هذه التطورات التصاعديـة نستلهـم ان الانسان كائنا من كان انما يفحص عن نظام عادل يؤتي كل ذي حق حقه ، وهذا النداء الفطرية العادلة ، المتأيدة المفروضة بوحي السماء ، انها نداء الحق الصراح ، ودراسة تاريـخ

الانبياء تعرفنا كيف كانوا يوجهون الشعوب الى حكم الله تعالى ، وان الحاكم ــ ايا كان ــ واجبه تنفيذ حكم اللهدون ان يرتأي رأيا من عند نفسه ..

نرى طوال التاريخ صفين متعارضين ، صف رجالات الوحي وصف اذناب الشياطين ، فالاولون يحاولون حصر الحكم بالله وبمن يمثل الحكم الحق ، والاخرون يحاولون الحكـم على الشعوب بالسيف والنار ، فكل تصاعدة الى الحكم الحـق انما هي من وحي السماء كما وهي من نداء الفطرة الانسانية التي فطر الله الناس عليها .

فأخيرا ــ وبعد النظام الدستوري الفينيقي ــ انتقل الى النظام الجمهوري ، وقد حدث في ظروف طبيعية دونما ثورة او نزاعات اجتماعية وحزبية ، بل ثمة ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية قضت بان ينتخـب بعض الاشخـاص ليتولوا شؤون المدينة فعرفوا باسم القضاة ( شفاتيم ) هكذا بدأ النظام الجمهوري الديموقراطي في صور عام ٥٦٤ق.م.

**الاستقـرار السياسـي :**

لقد دام هذا النظام مئات السنين دون ان يتعـرض لأزمات ، وانما مرجعه الازدهار الاقتصادي في الدرجـة الاولى ، فقد عرف المجتمع فئة من الاثرياء هي طبقة الاشراف، وفئة ثانية ليست من الفقراء بل من الميسورين ، وقد دأب

كل من الملك ( رئيس الجمهور ) والحكام على تأمين مصلحة المدينة التي هي في الوقت ذاته مصلحتهم الخاصة ، واذا شعروا بأن فئة من مجتمعهم تشكو العوز شجعوها على الهجرة الى المستعمرات لتحسن اوضاعها الاقتصادية ، فحققوا بذلك نوعا من العدالة الاجتماعية .

هذا وان الديانات الالهية تدعو الى تحقيق العدالة الواقعية، رضي بها الاكثرية أم لم يرضوا بها، فوحي السماء لا يرضى حكم الفرد على الشعب ، ولا حكم الشعب على الشعب ، انما حكم الله على العباد ليس الا .

**النظام الطبقي الفينيقي :**

١ ــ الملك والعائلة الملكية ــ ٢ ــ النبلاء وهم اكبر الاغنياء ــ ٣ ــ الكهانيم وهم الكهنة ــ ٤ ــ القادة العسكريون ــ ٥ ــ العامة وهم بين البورجوازيين ــ ٦ ــ والعمال ــ ٧ ــ والفلاحين ــ ٨ ــ والعبيد .

ولقد سيطرت المادة على ذهنية الفينيقيين فغدت قاعدة ثابتة في تنظيمهم الاجتماعي .

هذا ولكن وحي السماء ينكر الطبقات ، لا واقعها اطلاقا ، انما فواصلها بالميزات المادية ، فقد جعل الميزة الاولى والاخيرة بين الناس بالتقوى ، ولكن هذه الميزة ايضا لا تجعل استبدادية واستغلالية للمتقين ، انما كرامة عند الله وعند الناس .

اجل لا طبقية في الديانات الالهية ، حيث النظام الروحي والنظام الاقتصادي يجعلان من مختلف الطبقات والافراد امة واحدة كشخص واحد ، يرحم قويه ضعيفه ولا يظلمه ، ويساعد ضعيفه قويه فلا يثور عليه ، ويعين غنيه فقيره فيعاون فقيره غنيه ، ويعلم عالمه جاهله فيخضع جاهله لعالمه ، طبقات متضامنة متعاونة مواسية رغم اختلاف طاقاتها المادية والمعنوية .

فالقضاء على واقع الطبقية قضاء على مختلف الطبقات ومنتجاتها وهذا ظلم على الافراد وتجميد للاستعدادات ..

واقرار الطبقات على الطبقية المستقلة المستغلة الظالمة ظلم وقضاء على الفقراء والمظلومين،وهدم للكيان الاجتماعي الانساني . .

فالامر بين الامرين انما هو القضاء على اضرار الطبقية لا على واقعها ، ووحي السماء وسط بين النظامين ، الشيوعي والرأسمالي ..

فلا يعتبر للافراد استقلالا يصطدم وحرية وحياة الاخرين ، ولا يجعلهم من ضمن الاجتماع ليست لهم حرية العمل وحرية التصرف في منتجاته ، بل الفرد ضمن الاجتماع والاجتماع للافراد .

ففي حين يقر المالكية الشخصية يفرض على الاشخاص المالكين اعانة المعوزين من افراد ومن مجتمعات .

فالدولة ـ مثلا في نظر الاسلام ـ ليست هي الكل ـ ولا الافراد هم الكل ، انما الدولة خادمة للافراد كما الافراد تخدم في مصالح الدولة الاسلامية ، وهذه التضامنية بين الدولة والشعب وبين طبقات الشعب تجعل عدالة واقعية ومدنية فاضلة انسانية على ضوء الشريعة الالهية .

اذا فلا شيوعية ولا رأسمالية ، انما اسلامية عادلة ، وقد بأتيكم قول فصل في مقارنات الفكر الاقتصادية .

**الحضارة الاغريقية ( اليونانية )**

المجتمع : ان المجتمع اليوناني كان ثلاث طبقات :

المواطنون : وعددهم قليل نسبيا ( اربعون الفا ) وهم اغنياء يستأثرون بالسلطة والنفوذ ، متساوون في الملكية ، اما النفوذ فرهن بالعائلات العريقة .

العامة : وهم صغار الملاكين يعملون بأنفسهم واحيانا يعتمدون على العبيد وانما املاكهم فقيرة بعيدة لا تكاد تكفيهم ، ترهقهم الضرائب وتخف عنهم وطأة الخدمة العسكرية .

العبيد : وهم السواد الاعظم ، يقيمون على خدمة المواطنين والعامة ، حصتهم النزر اليسير من الغلال ، لا يشبعون في معظم الحالات ، ويحق لسيد العبد ان يبيعه او يقتله .

اقول وهكذا طبقية ظالمة منفصلة ترفضها الديانات الالهية كما يظهر من الدراسة الصحيحة لكتاباتها الالهامية.

**خطر الفلسفة على الدين ؟**

ان الدين الاغريقي ــ الوثني ــ أصبح في خطر العقليين ، فشك الكثيرون من عقلاء الاغريق بدياناتهم ومعتقداتهم ، فسقراط مثلا دأب على تجاهل الالهة ، وجمع فيثاغورس وافلاطون بين الفلسفة والدين وشددا على قضية خلود النفس ليحثا الناس على حسن السيرة والاخلاق وسخر يوريبيدس في مسرحياته من الالهة وانتهى الامر بان قضت الفلسفة دون عمد على ركائز هذا الدين المشترك .

والسبب في ذلك ان ذهنية الاغريق لم تصور الآلهة في مظهر قدسي بعيد عن المفهوم البشري ــ رغم مصر وبلاد ما بين النهرين ــ فما الاله الا صورة مكبرة عن الانسان ، خاضع للحتمية ، عاجز عن اعطاء تعليل مقبول لمصير الانسان بعد موته ، فانصرف المتشككون الى المنطق والفلسفة محاولين ايجاد التفسيرات حتى اذا انكر الفكر صواب الديانة لم يترددوا في التصدي للالهة والسخر منها .

هؤلاء الفلاسفة والمنطقيون الاغريقيون استوحوا تحللهم عن الآلهة من الفطرة والعقلية الانسانية المتأيدة بوحي السماء ، الذي يحرض الانسان طوال التاريخ الرسالي

الى التعقل والتفكير ووصلوا اخيرا الى فكرة توحيد الاله المجرد عن الكيان المادي .

وما العقلية والفلسفة الاغريقية الا نتيجة الالتجاء الى وحي السماء وهذه الحضارة العقلية منسبكة من رجالات الوحي طوال التاريخ .

وهذه خرافة من القول وزور ان الفلسفة الاسلامية ترجمة عن الفلسفة الاغريقية، فاننا لا نؤمن بالفلسفة الاغريقية تماما لان فيها انحرافات كما فيها حقائق، والفلسفة الاسلامية المستفادة من الكتاب والسنة لا تضاهيها أية فلسفة بشرية ، انها أمّ الفلسفة، دون مزج بالفكرة البشرية ، انها من وحي السماء خالصة عن شوائب الاوهام والاخطاء البشرية ،انها في حصن رصين متين لا ينقض ، أبدية خالدة ، كلما تقدم العقل والعلم تقدمت وازدهرت أكثر وأكثر [1] .

ساعة برز أدب اليونان كان الفكر من مصادر وحي هذا الادب ، والادباء كانوا من المفكرين ، فشغفوا بتعليل الاشياء والتفتيش عن الحقيقة والسعي للمعرفة لان دياناتهم ( الوثنية ) لم تضمن الاستقرار للقلق النفسي .

**طاليس :**

نشأت المحاولات الفكرية الاولى في ايونية فبرز

---

(١) راجع كتابنا « حوار » .

« طاليس » الذي رد الكون الى اصل مائي ، ولم تكن هذه الفكرة الا من وحي السماء وكما في القرآن « وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ( هود ٧ ) [1] يعني بالماء المادة الاولية المتطورة الى مختلف الذرات والعناصر ، لا الماء المعروف عندنا ، فانه ايضا من ذلك الاصل المعبر عنه في لسان الوحي بالماء ، لانه يشبهه من حيث مشابهة الاجزاء ومسانختها .

**سقـراط : ( ٣٩٩ ـ ٤٦٩ ق.م. ) :**

ثم نرى سقراط فقيادة العقـل والمنطق جعله أخطـر الاشخاص على الدين والآلهة ، وانتقاداته الدائمة جمعـت حوله عدداً ضخما من المشككين وحقد عليه الحاكم انيتوس لان ابنه تبع سقراط فوجهت اليه التهمة التالية :

« ان سقراط مذنب لانه لا يعترف بالآلهة التي تعترف بها الدولـة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية ، وانه مذنب كذلك لانه افسد الشباب » وحكم عليه بالاعدام ولكـن من حاكموه ندموا في النهاية .

وهكذا كان الانبياء هداة العقول الى التقدم وبنـاة الحضارات الفكرية ، كانوا يتهمون بالافساد والشـذوذ

---

(١) راجع كتابنا المقارنات والسماوات والارض في نظر القرآن .

والجنون ، لانهم كانوا يحاربون الخرافات الجارفة ويحرضون على التعقل والتفكير في كافة الشؤون الحيوية.

**افلاطون : ( ٣٤٧ ـ ٤٢٧ ق.م. ) :**

انه أحب سقراط ورافقه حتى النهاية ، وكان في الثامنة والعشرين عندما حكم على معلمه بالموت ، دوّن أقوال سقراط لان هذا الثرثار رفض أن يكتب ، فصعب التمييز احيانا بين افكار الرجلين ، وفي كتاب الجمهورية تخيل أفلاطون أفضل المجتمعات وأسعدها وتكلم عن عالم المُثُل فقسم العالم الى قسمين : علوي وسفلي ، واطلق على العلوي اسم عالم المعقول او المثل ، والمثل ـ على حد زعمه ـ حقائق ازلية ثابتة في كمية محدودة لا تفسد ولا تزول ، وهي مبدأ الوجود والفكر ، اما العالم السفلي فيتضمن اشياء متعددة ومتغيرة لها مثالها او صورتها المجردة عن المحسوس في عالم المثل ، وما الانسان الا الصورة الكلية الشاملة لخصائص أشياء العالم السفلي ، ولم يقلّ افلاطون عن سقراط في انكار الدين الاغريق والهتهم اقترابا من الله .

أقول : والفلسفة الافلاطونية مع انها الهية ، فيها الكثير من الاثباتات لوجود الله ، مع ذلك لا تخلو عن بعض الانحراف كالقول بالحقائق الازلية الثابتة بجنب الازلية

الالهية . ولقد برهنا في فلسفتنا الاسلامية انحصار الازلية في الله [1] .

**ارسطو او ارسطوطاليس ( ٣٢٢ ـ ٣٨٤ ق.م. ) :**

كانت تعاليمه ردة فعل ضد المُثُل لانه كان يعلم ماشيا ، وانطلق من الواقع ليصل الى الله علة الوجود ، فخالف بذلك افلاطون الذي شاء أن يطبق عالم المثل على الارض، والنفس عند ارسطو ملازمة للجسد مرتبطة به ، فعارض بذلك نظرية التناسخ الفيثاغورية وتعصب للمنطق ، فوضع المنطق الشكلي ، ورأى سعادة الانسان في الاتزان والتزام الموقف الوسط في كل القضايا والامور .

ومع هؤلاء العمالقة الثلاث ـ سقراط وافلاطون وارسطو ـ بلغت الفلسفة اليونانية ذروتها ، وفاخر الاغريق بانهم انجبوا في عصر واحد ما عجزت عنه بقية العصور والامم .

أقول : وهذه المفاخرة صحيحة لحد ما لو عُني بالفلسفة الناتجة من الفكر البشري المربوط بوحي السماء ، ولو عني بها الفلسفة الآلهية الخالصة لم يبق مجال لهؤلاء ولمن هو ارقى منهم بجنب فلسفة الوحي الموجودة في كتابات الوحي

---

(١) حوار بين الالهيين والماديين .

الخالصة عن التحريف كما القرآن اتى بفلسفات عريقة تحير العقول .

والفلسفة البشرية مهما كانت راقية وعميقة لا تخلو من نواقص وانحرافات . ووحي السماء هو الذي يهدي الفكر البشري ويفلسفه متحللا عن كل انحراف وانجراف.

**الحضارة الرومانية :**

لفظة الرومان تعني في الاصل مدينة روما ، ولما اصبحت روما عاصمة الدولة عنت هذه اللفظة كل سكان الدولة . كما ان مفهوم كلمة ايطاليا لم يشمل في البدء الا القسم الجنوبي منها فقط .

وايطالية الحالية تقسم الى مناطق ثلاث : سهل لومبارديا ، ويسقيه نهر « البو » في الشمال ، ثم شبه الجزيرة وتحتل معظمها جبال «الابنين» ثم الجزر وأهمها «صقيلية» صلة الوصل بين ايطاليا وأفريقيا .

**المجتمع الروماني ـ نشأة المجتمع :**

لا بد من دراسة المجتمع الروماني من الوقوف على التطورات التي اعترته ، لا سيما وان بعد الثقة ووفرة الاحداث والفتوح تركت فيه تأثيرا واضحا ، وأعطت الصراع الطبقي مظاهر شتى ، فبعد ان تألف المجتمع من

رعاة ومزارعين متساويين أصلا ، سرعان ما برزت الملكيات الكبرى واستأثر كبار الملاكين بالمراعي الخصبة وحرموا المزارعين والرعاة من ارتيادها فاشتد النفوذ بين الصفين .

**المجتمع الجمهوري :**

ومع قيام الجمهورية ( ٥٠٩ ق.م ) اشتد التباين بين الطبقات الاجتماعية فغدت ثلاثا : الاشراف والموالي والعامة.

والأشراف قوامهم الأُسَر الغنية من كبار ملاكي الاراضي والقطاع ، توزعوا في عشائر عدة كل منها بضع مئات على رأسهم شيخ له السلطة المطلقة حتى على الارواح .

بينما توزعت العامة في أسر شبيهة بأسرنا اليوم ، معظمهم من الفلاحين ، انفجر العامة في ثورة اجتماعية لمغادرة روما ، ومعنى ذلك بوار الموسم ، فأجبر الاشراف ان يتخلوا عن الديون التي لهم في ذمة العامة ، وافاد العامة من هذا النصر الاولي ونالوا حق انشاء جمعية شعبية تنتخب بدورها عشرة ممثلين سموا حماة العامة ، لهم حق النقض ليبطلوا به القوانين المضرة بمصلحتهم ، وتبعت هذا الفوز منجزات اخرى ، ففي عام ٤٤٥ ق.م اجاز القانون الزواج بين طبقتي الاشراف والعامة واضحى للعامة رأي في انتخاب القنصلين واختيار اعضاء مجلس الشيوخ وتكلل نجاحهم باقرار المساواة الاجتماعية بين الطبقتين .

أقـول :

وهكذا قضاء على الطبقية شعاع من اشعة التعاليـــم الالهية ان : كلكم من آدم وآدم من تراب ولا فضـــل الا بالتقوى كما نراه في كافة الديانات الالهيـــة ولا سيمـــا الاسلام .

**ديانـــة الرومـــان وظهـــور المسيحيـــة :**

عدّد الرومان آلهتهم وجعلوا لكل من مظاهر الحياة الها ... الا ان صلتهم باليونان ثم بفلسفتهم الالهيـــة قد اثرت فيهم فتساهلوا في أمور الدين .

تميزت ديانة العبرانيين بابتعادها عن المظاهر الماديـــة وبعبادة اله سماوي سموه «يهوه» هو الله وبواسطة كليمه موسى أنزل الله وصاياه العشر ، وقـــام ميثـــاق بين الله وموسى ، ولكن ديانة العبرانيين لم تسلم من الشرق احيانا فثارت ثائرة الانبياء ونددوا بالمشركين فردوا الملحـــدين ، وآخر انبيائهم كان يحيى الذي بشر بقرب مجيء المسيح ، فكانت ديانة العبرانيين اقرب الديانات الموحدة الى المسيحية حتى اذا جاء المسيح قال : « أتيت لأكمل لا لأنقض » .

ان المسيح كسائر النبيين كان من الدعاة الى توحيد الله كما يحكي عنه القرآن وانجيل برنابا الحواري وبعض الآيات من سائر الأناجيل .. الا ان عقيدة التثليث والتبني

والصليب والفداء وابطال شريعة الناموس ، هذه العقائد الشركية والاباحية اخذت تتسرب وتترسب في التعاليم المقدسة المسيحية ، الى حيث كأن المسيح نسخة من بوظا وبرهما وان المسيحية هي البوظية والبرهمية بعينهما .

فالمسيحية اليوم خليطة من وحي الرحمان ، ووحي الشيطان ، مزيجة من حقائق الهية ومن خرافات بشرية .

جاء المسيح داعيا الى الله قاضيا على عبادة الاوثان والطواغيت منددا بطاعة علماء اسرائيل الطغاة الذين يعلق بلحاهم الطويلة الشيطان ، هؤلاء الذئاب المتمثلة بمثال الرعاة الذين كانوا يشرون بآيات الله ثمنا قليلا ويأكلون اموال الناس بالباطل .. كان يندد بهم في الجماهير ويدعوهم ليرجعوا الى حكم الله ، ولكنهم طالما عاندوه وعارضوا حتى ظنوا انهم صلبوه رغم انهم : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

اصبحت الديانة الروحانية الموحدة المصلحة المسيحية، أصبحت اليوم ومنذ رفع المسيح الى السماء ، اباحية شركية لا مطمح ولا مطمع فيها الا للاريحية الدينية للذين يريدون ان يجمعوا بين الدين والتحلل عن اسر الشريعة ، صنع لهم بولص اليهودي دينا يسمح لهم ارتكاب كل رذيلة فانهم مغفور لهم بما فدى وضحّى مسيحهم على حد زعمهم، تضحية واقعها قضاء حاسم عارم على كافة الديانات الالهية.

صنع لهم اناجيل لا ترجع بصالح لا للدين ولا للدنيا ، فتراهم منذ تحللوا عن هذه الاناجيل اخذوا في التقـــدم والحضارة على حد تحللهم ، عكس المسلمين الذين تأخروا عن حضاراتهم منذ تحلّوا عن تعاليم القرآن .

فحضارة الغرب المسيحي ليست رهن الديانة المسيحية، انما التحلل عن الخرافات الانجيلية والكدح على ضـــوء الفطرة العقلية الانسانية ، والاستيحاء بكثير مـــن وحي القرآن وان كانوا لا يلفظون به او يعكسون امرهم كـــأن حضارتهم اليوم وليدة الديانة المسيحية .

**سبب انتشـــار المسيحيـــة :**

والسبب الاصيل في انتشار هذه المسيحية لم تك الا سهولتها لاذواق الاريحيين الصوفيين ، فيا لها من ديانـــة صالحة للاعتناق لا تريد من معتنقيها تقيدا الا بعقيدة الثالوث والمحبة الثالوثية ، ثم المسيح هو الذي افتداهم من لعنـــة الناموس اذ صار ملعونا لاجلهـــم ! فبامكان المسيحي أن يدخل جنة النعيم رغم دخوله في كل رذيلة خلقية وعملية ، واخر المطاف ان يشتري الجنة من القسيس ويستغفر منـــه ذنوبه بالمال والجنس ! .

فالمسيحية اليوم ليست الا صورة الايمان ــ الدخيل ــ لا صورته الصحيحة ، تجعل ارتياحا تاما يضمن المجرمين ،

رغم ان المشركين أيا كانـــوا ليسوا مرتاحي الضميـر كالمسيحيين ، اذ هم يجدون خطرا وعقوبة لجرائمهم ، اذا فهذه المسيحية أشر من الشرك واخطر ، الا عند المسيحيين المؤمنين على حـد تعبير القرآن « ليسوا سواء من أهـل الكتـاب أمة قائمـة يتلون آيات الله آناء الليـل وهم يسجدون • يؤمنون بالله واليوم الاخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيـرات واولئـك من الصالحين • وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين » ( ٣ : ١١٤ ــ ١١٥ ) •

أجل وانهم يتلون آيات الله لا اختلاقات الدساسين المحرفين ، والذين يؤمنون بالله دون الكافرين بكيانـه ووحدته القائلين بالثالوث والابن الالهي ، والمؤمنون باليوم الاخر ، انه دار الجزاء لا المعتنقون الفداء الصليبي القاضي على جحيم النار اطلاقا ، والامرون بالمعروف الناهون عـن المنكر ، دون من يرى الشريعة أسرا ولعنـة وان المسيـح افتداهم من لعنة الناموس •• أولئك هم الذين ما يفعلوا من خير حسب الانجيل الصحيح فلن يُكفروه وان لم يهتدوا السبيـل الى الاسلام ــ أحيانـا ــ جاهلين قاصرين غير معاندين •

واخيرا حقيقة نصرح بها ان المؤمنين بالمسيح علـى حزبين : المؤمنين حقا وهم القلة القليلة الذين آمنوا به ايمانا

صحيحا وسبب ايمانهم نصوع التعاليم الصالحة المسيحية .

٢ ــ والصوفيين الاريحيين الاباحيين الذين يهدفون من وراء اعتناقهم المسيحية أن يستروا مفاسدهم الخلقية تحت ستار الدين الاباحي الذي يكتفي بالمحبة في سبيل المسيح دون شرط العمل ، وهم الاكثرية الساحقة ، ولقد كانت الدول المسيحية تؤيدها بكل الطاقات لانها أيضا تؤيدها ولا تعارضها ، ولانها ديانة وليست سياسة. ومحبة وليست عملا وسعيا ، وهذان مما يريده الاستعمار طوال التاريخ ، ولقد وجد بغيته في هذه المسيحية ولذلك يزودها بالقوة والمال في كافة المجالات الدعائية .

ثم لما جاء الاسلام أسلم المؤمنون او وقليل من الاخرين ايضا ، اذ كانوا مشتبهين ، وليس سبب انتشار الاسلام الا وضوحه وملاءمته للعقل والفطرة وواقع الحياة الانسانية، لا السيف ولا النار ، لانهما ليسا بالذي يخلق الايمان ، ثم يدوم ، انما هما دفاع عن حوزة الاسلام او حمل على الشهادة اللفظية لكي يعتبر الكافر مسلما ثم يتدرج عقليا وفطريا لقبول واقع الاسلام كما سنفصله في فصله .

**الكنيسة :**

اهتم بولس مؤسس المسيحية اليوم بتأسيس كنائس المدن والمقاطعات التي يكرز فيها فجعل على رأس كل كنيسة

ممثلا عنه يدعى اسقفا ، ويساعد الاسقف عدد من القسس والشمامسة ، وتكاثرت الكنائس وتكتلت في كل ولاية ، واعترفت بسلطة كنيسة عاصمة وولايتها على الولايات ، فعلت بذلك مرتبة اسقف كنيسة العاصمة كأسقف انطاكية في الشرق واسقف اسكندرية في مصر واسقف قرطاجة في شمال افريقيا ، اما روما عاصمة الامبراطوريةفقد اختارها بطرس ــ هامة الرسل ــ مركزا له فكانت لها الاولوية بين سائر الاسقفيات ولا تزال البابوية اليوم وريثة هذا الواقع.

**آباء الكنيسة :**

ان فئة من القديسين اكملوا عمل الرسل والشهداء ولقبوا بآباء الكنيسة ، اذ وطدوا اركان الكنيسة وتعمقوا بجذور العقيدة والايمان ، واعتبر ما خلفوه من مؤلفاتحجر الاساس بالنسبة للاهوت . وفي القرن السادس عشر ــ عندما قام الاصلاح البروتستانتي والكاثوليكي ــ احس المصلحون انهم بحاجة للعودة الى ما كتبه آباء الكنيسة ، ومن مشاهيرهم بين الشرقيين ( افرام السرياني ) و ( يوحنا الذهبي الفم ) وفي الغرب ( اغسطينوس ) و (ايروتيموس) مترجم الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية .

**تأثير المسيح :**

.. ومما لا يريبه شك ان السيد المسيح بتعاليمه النيرة

المشرقة كسر ثورة المادية الاسرائيلية وسواها ، وحرض الجماهير على الاقبال الى الروحانيات والاخلاق ، ولولا التحريفات والتشويهات البولصية القاضية على تعاليم المسيح ، لاصبحت المسيحية من اعظم الوسائل لترقية الانسان في العقائد الصالحة والاعمال الحسنة ، ومذ نشبت في المسيحية العقائد الوثنية والاباحية والاريحية ، اصبحت المسيحية ستارا وتبريرا لكثير من الاعمال الشريرة والعقائد الخرافية ، فهذا هو وحي الشيطان البولصي الذي يحرف وحي الرحمان ، ويجعل منه مخدرا وسترا خياليا على القبائح !

**الحضارة الاسلامية ـ الحضارة العربية ـ العرب قبل الاسلام العرب بعد الاسلام :**

**... العرب قبل الاسلام :**

كان العرب قبل الاسلام لا شيء وأصبحت بعد الاسلام كل شيء الى حيث استفادت من حضارتها على ضوء الاسلام كل دول العالم ، والواقع التاريخي شاهد الامرين تماما .

**ارض العرب :**

.. بلاد العرب قطر صحراوي فسيح تبلغ مساحته حوالي ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، وهي شبه جزيرة تقع

في الجنوب الغربي من آسيا ، يحدها الخليج العربي وبحر عمان من الشرق والمحيط الهندي من الجنوب ، والبحر الاحمر من الغرب ، وبادية الشام وبلاد الرافدين من الشمال ، وهي بهذا الموقع تحتل مركزا غاية في الاهمية بالنسبة للمواصلات والمبادلات التجارية بين عالم من البحر المتوسط وعالم المحيط الهندي .

**العرب البدو :**

في عصر ما قبل الاسلام كانت كل أسرة عربية تملك خيامها ، ويشكل مجموعة هذه الخيام عشيرة .. وبتجمّع العشائر ذوي القربى تتألف القبيلة ، وكان التضامن مطلقا بين اعضاء القبيلة الواحدة ، بينما نجد موقفها مع القبيلة المجاورة مختلفا تمام الاختلاف ، اذ تصبح الاخيرة فريسة تترصدها للهجوم عليها ونهبها ، ويتولى الرئيس قيادة التشكيل القبلي . وينتخبه مجلس القبيلة ( الجماعة ) مراعاة لثروته او لصناعته الحربية .

**التاريخ السياسي :**

.. لم تعرف بلاد العرب قبل الاسلام شكل الحكومة المركزية ، وانما قامت فيها وحدات سياسية على أسس قبلية ــ كما قلناه ــ تفاوت تنظيمها وفقا لتباين اتساع نطاق

نفوذها وسلطتها ، وهذه ابرز المظاهر السياسية في تاريخ العرب قبل الاسلام .

**الدويلات العربية :**

لقد تأسست منذ الالف الثالث قبل الميلاد دويلات تعاقبت على مسرح الاحداث وساهمت في تشييد البنيان الحضاري في المنطقة ـ خارج الجزيرة العربية ـ دون ان تؤسس دولة في نفس الجزيرة قبل الاسلام ، حتى تأسست الدولة العالمية الاسلامية على ضوء الاسلام ، اجل اختصت مكة المكرمة بين البلاد بجمهورية ـ لا سياسية ـ وانما تجارية ، فعلى الرغم من انها كانت في اول عهدها مقاما دينيا ، فقد برع اهلها في شئون التجارة ، ومع الزمن اصبحت مكة جمهورية تجارية يرأسها الموسرون من اكابر قريش الذين اتاحت لهم موارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاها ووسائل للترف على اوسع نطاق ، وابتنى قصي مؤسس مجد قريش في اواخر القرن السادس الميلادي دار الندوة ليتجمع فيها كبار اهل مكة تحت امرته للتشاور في شئون البلد ، والى عبد المطلب يعود الفضل في انقاذ مكة من غارة ابرهة سنة ٥٧٠ م ( عام النيل ) .

**حياة العرب الدينية :**

وحياة العرب الدينية ، بصورة شاملة ، كانت الديانة الوثنية كما فصلنا من ذي قبل .

**الحيـاة الاجتماعيـة :**

مكـانـة المـرأة : كانـت المـرآة عند العـرب كالحيـوان تبتـاع وتشترى وتقتـل لا لشيء الا لانهـا عار على اهلها وكما يقول القرآن : « واذا بشر احدهـم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب ألاساء ما يحكمون » ( ١٦ : ٥٨ ــ ٥٩ ) •

كانت المرأة لا ترث بل كان يرثها الوارثون ، ولم تكن لها نفقة ولا صداق ، انما عليها ان تتعب في مختلف الاشغال وتخدم العائلة ثم لا تملك نفسها ولا مالها ولا عرضهـا و ••• حتى جاء الاسلام واعطاها كل شيء كمـا نراه في الحقوق الفردية والجماعية المنزلية وسواها للمرأة المسلمة•

**التـراث الفكـري :**

لا نجد للعرب تراثا فكريا الا غارات متواصلة ومغازلات بالاشعار ، وسرقات ومقامرات وشتى ألوان البغاء ، وعلى الجملة كانت العرب جماع كل رذيلة فردية وجماعية حتى جاء الاسلام ونجاهم من شفا جرف الهلكات •

**العـرب والمسلمـون بعـد الاسـلام :**

أصبحت العرب بعد اسلامهم أرقى وأقوى دول العالم

الى حيث أثرت حضاراتهم في شتى المجالات ، وأثرت فـي سائر الملل ، اينما حل الاسلام ووصل صيـت الاسـلام وصوته .

العرب ، وهم اولى حاملي الرسالة الاسلامية ، سبقوا الامم في الحضارات الاسلامية، ثم كل أمة دخلت فيالاسلام أصبحت متحضرة حسب مقـدار تأثير الروح الاسلاميـة فيهم ، فليست العرب ـ اذا ـ هم الذين حضّروا الامم ، انما هو الاسلام قدر ما حل محله فيهم او من سواهم ، انما هو محمد بن عبدالله الرسول الاعظم حامل الرسالة العظيمة الالهية هو الذي حضّر الامم ، ومن تعاليمه « لا فضل لعربي على اعجمي ولا لاعجمي على عربي ولا .. الا بتقوى الله.. كلكم من آدم وآدم من تراب ، ان اكرمكـم عن اللـه اتقاكم » ..

ومما قضى عليه الاسلام هو القومية العربية ضمـن القوميات اذ ركز دعوته على تقوى الله اينما حلت ، في عربي او اعجمي .

لذلك نرى القرآن يندد في سورة فـذة رأسا مـن رؤوس قريش عـم الرسول (ص) أبا لهب « تبـت يـدا أبي لهب وتب .. » والرسول محمد يعتبر سلمان الفارسي محمديا « لا تقولوا سلمان الفارسي بل قولـوا سلمـان

المحمدي » . ولما يسأل سلمان انت بن من ؟ يجيب : انا ابن الاسلام .

أجل ، ان الروحية الاسلامية هي التي حضرت الامم روحيا وماديا ، وأثرت في أصلب الامم وابعدهم عن الحضارة والانسانية وبأحرى في سواهم ، ومع انهم نقطة الابتداء وحملة الرسالة ، أصبح المحمول اليهم أفضل منهم وأتقن في الايمان والحفاظ على الرسالة منهم ، كما يشهد به الواقع والتاريخ والمؤلفات والاثار العلمية .

**العرب والمسلمون :**

فاذا قلنا « العرب والمسلمون بعد الاسلام » لا نعني بذلك امتياز العرب على سائر المسلمين لانهم عرب وانما لانهم هم نقطة الانطلاق والابتداء ، وان من عظيم تأثير الاسلام أن أثر فيهم أيضا وصنع منهم رجالا صالحين أخذوا في صناعة التاريخ والحضارات ، ولكن القبلية الزمنية ليست بالتي تقدمهم وتميزهم عن سائر المسلمين ، كما القوميون العرب يخيل اليهم ، والا فلنقل « المسلمون » أو « المسلمون العرب » لتأخرهم عن سواهم من المسلمين في الحضارات الاسلامية اخيرا ... وعلى اية حال فليس الا الاسلام ولا أية قومية او اقليمية ولا ما سواهما من ميزات يتمسك ويفتخر بها من لم يستخلص الى الروحية الاسلامية .

لذلك فمن الواجب الا يفرد العرب عن المسلمين ، لانه بكلا المعنيين غلط : بمعنى امتياز العرب على سائر المسلمين، او بمعنى عدم كونهم مسلمين ! •• انما :« المسلمون » ولا سواه •

وتحزب العرب ــ على مختلف اديانهم ــ تحزبهم عربيا ضد اسرائيل يجعل الحرب عربية لا اسلامية، فانتكاسهم اذا ليس الا انتكاس العرب لا الاسلام •

ولو انهم اعتبروا الحر باسلامية لاشترك فيها المسلمون ولم تبق اسرائيل ولا ساعة واحدة ، فانما الخسار والبوار في التمسك بالقومية وجعلها هي المراد دون الاسلام •

**الحضـــارة الاسلاميـــة :**

••• يقال ان كل انسان ــ وبكل حضارة وثقافة ــ انما هو ابن ماضيه ، تتبنى شخصيته مما أخذ من ماضيـــه وما درس ، وهذا صحيح لحد ما ، اعني انه ليس ضابطـــة كلية ، فقد يوجد انسان ليس ابن ماضيه ، بل هو ثورة على حاضره وماضيه ، وهكذا انسان قليلا ما يوجد كانســـان الارض ووليد البيئة، وان يثور رغم البيئة ويتبنى غير ما نشأ عليه ، فانما هو انسان السماء الذي يثور على كل حـــاضر وغابر فاسد فيقال : انه ابن الوحي ــ وحي السماء ــ لم يدرس في مدرسة الارض ، وليست شخصيته وليدة ايـــة مدرسة الا مدرسة الوحي •

هكذا تكون الحضارات الحاصلة من وحي السماء ، وان كانت كل لاحقة منها تمشي ممشى سابقتها في جذور القيم والمثل الاخلاقية ، ولكنهاتختلفعنها بالاكملوالكامل، وان كانت كل الشرائع الالهية كاملة لا نقصان فيها ، الا ان طبيعة الشرع الالهي ان يتكامل حسب ما يحتاجه الانسان في متطلبات الحياة ، حتى وصل الدور الى الشريعة الخالدة وهي شريعة القرآن ، وانها ثورة على حاضرها وغابرها ، هيمنة على كتابات الوحي السالفة ، تزييفا لما تدخل فيها من أوهام ، وتصديقا وتكميلا لما كان منها من وحي السماء ، وتأسيسا لما لم يكن فيها من اسس تلائم الخلود .

اذا فالحضارة الاسلامية ليست ابن ماضيها ، الا في جذور العقائد والاحكام ، استمرارية لها لانها لن تتبدل ، انها وحي يستمر ، فبصيغة أخرى ليست ابنا الا لنفسها .

يقصد بالحضارة ـ في صيغتها العامة ـ مجموعة المعارف والتشريعات والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ ، وفي بقعة من بقاع الارض ، سواء شملت شعبا او اكثر .

ان غاية الحضارة الارتفاع بالحياة الانسانية فكريـة عقلية ، ومادية معيشية ونفسية خلقية ، واجتماعية الى جانب الحياة الفردية ، والحضارة الصالحة الخالدة هي التي تلائم كافة هذه المتطلبات طوال الحياة ، والانسانية مهما تقدمت في العقلية لا تتمكن أن تُحَضِّر نفسها هكذا لعدم الاحاطة بكل المتطلبات والمقاييس والحوادث الجارية .. ولذلك نجد ان الحضارات طوال التاريخ ليست الا ابناء ماضيها ، تبنت عليها وتكاملت قدرا ما دون ان تصل بشريا الى الذروة .

ولكن الحضارات الناتجة عن وحي السماء ، اذا اخذت عن مبادئها ، انها لا تكاد تندثر وتندحر ، الا اذا كانت مؤقتة بنفس الوحي ، الا في الوحي الاخير الذي يمشي مع الزمن ولا تندحر وتندثر .

فالحضارة الاسلامية الآخذة من وحي القرآن والسنة القاطعة الملائمة للقرآن ، هذه الحضارة من حقها الخلود ، اذ لا تكاد تجد فيها اي ظلم ونقصان واي انحراف وانجراف .

لا تجد اية حضارة بشرية الا وفيها خراب عامد او جاهل ، فقد تجدها جميلة رائعة في حالتها الحاضرة ، ولكنها تؤدي باتجاهاتها وتوصل به واقعها الى التردي والتقهقـر والخراب ، وتحمل في ثناياها بـذورا فاسدة لا تبـدو في

الحاضر نتائجها ، وهكذا كل الحضارات البشرية ليس فيها بقاء وصلاح الا ما كان من وحي السماء .

أجل ـ ولان الحضارة ـ بصحيح معناها ـ هي التي تفسح المجال لنمو العقل وتفتّحه واكتشافه آفاق الوجود ، فتزيده علما ومعرفة نافعة ، وهي التي تزيد من قدرة الانسان على السيطرة على الطبيعة ليستثمرها لنفعه ، بعد ان يتحرر من سلطانها فترفع بذلك من مستوى حياته ، وتحقق لـه الكثير من رغباته ، وتزيد من سعادته وتسهل امر معاشه ، وتمكنه كذلك مـن السيطرة على نفسه ، علـى غـرائزه واهوائه ، وتفسح المجال امام نفسه وروحه كما فسحت المجال امام عقله لترتفع في آفاق أسمى ولتغير من ابتدائيتها وحيوانيتها ، فتنمي فيه الايثار والبذل مكان الاثرة والشح، وتجعل هدف الانسان : الخير لنفسه ولغيره ـ لا لتحقيق اللذة والاستئثار والوصول الى المراتب ، لا لتحقيق الشهوة والحيونة ..

... وهكذا حضارة لا تجدها الا في الاسلام الصحيح دون سواه .

**الحضـارة الحـديثـة :**

لم تستطع الحضارة الحديثة أن تضع حياتا انسانية، انما حيوانية في أغلبها ، وانسانية أحيانا لانها وليدة أبوين

سماوي وأرضي ، فمن حيث الولادة السماوية ورثت تركة ضخمة غنية ، فنمتها في بعض جوانبها ، ولكنها من حيث الولادة الارضية أضعفتها في جوانب أخرى غدت ضامرة هزيلة .

انها من ناحية فتحت للعقل الابواب وفسحت المجال واسعا وأكملت في الجانب المادي .. لقد استطاعت ان تسمو كثيرا في الارتفاع فأوجدت نبغاء عظاما في الفكر او بعض نواحيه على الاقل .. ولكن نقص الحضارة الحديثة يبدو في أمور :

انها حضّرت وجندت كافة طاقاتها في النواحي المادية، وتركت المثل العليا الانسانية ، فلا ايمان ولا أخلاق ولا عطوفة ولا رعاية لحق الا مضيّقة ، فترى الحق في مجتمع معين ــ كالانكليزي ــ يضمن الى حد كبير ــ ثم نجد الانكليزي نفسه ينتهك هذا الحق ولا يقره في مجتمع آخر يعتبره دونه ، فلا يزال الظلم والغصب والقتل قانونا سائدا بين الشعوب ، كذلك وأحيانا في داخل بعض الشعوب التي تمثل أرقى ما وصلت اليه الحضارة الحديثة من الوجهة المادية كالامريكاني ، اذ لا تسوي بين حقوق الابيض والاسود وهما يعيشان في بلد واحد وتحت رعاية حكومة واحدة ، وحتى الآن لا يستطيع الشاب الاسود أن يدخل الجامعة الا على رقابة البوليس .

أجل ولانها أخذت الجانب المادي فقط ، واعتبـرت الانسان مكينة لا تهدف الا الانتاج المادي فحسب، ولذلك لم تستطع أن تزيد من حساسية الضمير البشري حتى يغضب للحق ويثور على الظلم ويغار على انتهاك الحرمات ، لـم تستطع أن تقوي فيه عاطفة الايثار والرحمة والفداء والتحرر والاخلاص .. فلئن كانت قد حررته الى حـد كبير مـن سلطان الطبيعة فانها لم تستطع أن تحرره من نفسه رغم أنه أحرى ما يتصور من الحريات العاقلة ، انها أخفقت في هذا الميدان أيما اخفاق ، فعبدت المادة والشهوة فقط فأصبحت حيوانا كاملا في الحيونة ، ولذلك لم تستطع ولن تستطيـع أن تؤمّن التوازن بين الناحية الفكرية والناحية الخلقيـة فحدث الاختلال والاضطراب .

أجل ــ وانها رغم تقدمها في الناحية المادية تأخـرت وأخرت البشرية عن قيمها الروحيـة ، فأدى ذلـك الـى اضطراب شديد في حياة الانسان في غاية الخطورة، وجعلت سيرها في تطورها متجهـا الى أهـداف سيئة ضارة ترمي بالانسان الى شفاجرف هارمنهـار ، الى البوار والدمـار روحيا ، وحتى من حيث الكيان الحيواني ، اذ ان الصنعة استعملت في حروب لا انسانية تهدد البشرية بالفناء العام ، واستعملت في تحريك الشهوات جنسية وسواها ، دون ان تدبر لها حدا تقف دونه .. وهكذا استحقت هذه الحضارة

ان يقال في شأنها أنها أشر وأخطر من الرجعيـة في شئـون الحياة المادية القرون الوسطائية بكثير الا أن تدرك نفسها بوحي السماء ، وتتدارك أخطائها قبل أن تقضي بالانسانية نحبها ... والا ان تؤمن بالحضارة الاسلامية التي تبنتهـا وغذتها من الناحية المادية ، لانها الآن ابن شريكين : وحي الارض ووحي السماء ، ولانها كذلك تطغى ، فلا بد لها أن تتبنى أساسا من جديد وترجع الى معنوية والدهـا حتـى ترث خيراته وتصلح حياتها ..

**حضارتان وليسـت واحـدة :**

ان الاسلام يدفع الى التقدم في كلى جزئي الكائـن الانساني : روحية ومادية ، مستخدما الناحية المادية ايضـا في ترقية الروح ، في حين أن الحضارة الحديثة لا تعتبـر الانسا نالا حيوانا ، وفي حين أن بعض التعاليم الروحيـة لا تعتبر ، الا ملكا عليه أن يترك الجوانب المادية، فبالرغم من تفريط الاولى وافراط الثانية ، ان الاسلام يأخذ طريقة وسطى هي المثلى ، بين الملك والحيـوان ، واذا استخـدم الانسان حيونته ذريعة في سبيل الكمال الانساني أصبـح أرقى من الملائكة أيضا .

ان الاسلام في صيغة مختصرة ــ هو فوق الزمـان والمكان ــ لا يخص زمانا محدودا ، انه كالشمس يجـري

بنوره الخالد على قلوب وأفكار المكلفين أنى كانوا واينما وكيفما ، وذلك رغم من يحصرونه في زمن مضى أو في العرب ، نقيض واقعه الشامل للازمان ، وما تدل عليه نصوصه الثابتة ، ومنذ القديم حاول مناوئوا الاسلام حصره او عزله عن الحكم ، ولكي يستريحوا عن أطر القوانين الالهية الخالدة ، ويعطوا الشهوة والحيونة حريتها المطلقة .

**التبشير والاستشراق :**

ومن ألد أعداء الاسلام هما التبشير والاستشراق ، وكلاهما من دعائم الاستعمار ، يهدفان توهين القيم الاسلامية وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب الاسلامية ، والتنديد بحالهم ، والازدراء بهم في المجالات الدولية .

**الاسلام المفترى عليه :**

فهناك الدعوة الى ان القرآن : كتاب مسيحي يهودي نسخه محمد بما درسه من علماء الكتاب ، كما نجده في كتيبات الاستاذ الحداد « دروس قرآنية » وقد قضينا على هذه الفرية في مؤلفاتنا الثلاثة : « المقارنات ــ رسول الاسلام في الكتب السماوية ــ عقائدنا » .

وأن الاسلام دين مادي لا روحية فيه، يدعو الى الدنيا وليس الى صفاء النفوس والمحبة !

وأن الاسلام يميل الى الاعتداء والاغتيال ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين ، كما أنه يدعو الى الحيونة والاستغراق في ملذات الدنيا .

وهناك الدعاية : أن الفلسفة الاسلامية فكرة يونانية ترجمت الى اللغة العربية !

وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم ، وبدلا منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة ، كما يجب ان تستخدم الحروف اللاتينية عوضا عن الاحرف العربية .

وهناك الدعوة الى : احياء الفرعونية في مصر ، والآشورية في العراق ، والبربرية في شمال افريقيه ، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان ،و الى تفضيل الفارسية كلغة آرية على العربية كلغة سامية ، والى أن الذي حمل امارات الحياة الادبية الجديدة في الشرق الاسلامي وحمل مظاهر الحضارة عامة ، هم نصارى لبنان الذين تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الامريكيين في سوريا .

وهناك دعوة الى التنفير عن حياة المسلمين الحاضرة ، لانها حياة بدائية ذليلة ! وان السبب في ذلك هو تعاليم الاسلام والتمسك بها !

ونرى التبشير والاستشراق في هذه الدعايات الكافرة سواء ، والفرق بينهما أن الاستشراق أخذ صورة البحث وادعى لبحثه الطابع العلمي الاكاديمي ، بينما بقيت دعوة التبشير فيحدود مظاهر العقلية العامة وهي العقليةالشعبية في الشرق .

والمؤسسات الاسلامية ، على تعددها وتنوعها ، لم تعرف تماما حتى الآن وضعية التبشير والاستشراق في توجيه الشعوب الاسلامية حتى تحاول استئصالها ، او تجاهلت ذلك او كاد .

وليست مبالغة من القول ولا مجازفة أن نقول : ان خطر الاستشراق أعظم من خطر التبشير ، اذ المستشرق يكتب ويقول كأنه محقق اسلامي يحب الاسلام ويصدقه ويحاول التعريف به ، ولكنه يكمن وراء تحقيقه أن يشوه سمعة الاسلام .

ففي حين نرى المستشرق الفرنسي غوستاولوبن يكتب تاريخه الضخم عن الاسلام ، نراه يدرج خلال

تحقيقاته التاريخية « ان السبب في عدم الرباط بين الآيات القرآنية هو أمية محمد وانه كان يعرضه عند اصدار الآيات شبه جنون لا يميز فيه الرباط الصحيح بين الآيات » ! وبذلك وحده يفتك ما غزله من التاريخ الاسلامي وكفاه هدما واستئصالا للاسلام !

وكما نرى « جاك• س• ريسلر » في كتابه «الحضارة العربية [1] بعد ما يعرف بالقرآن كأجمله ، يزيله بما يذبله قائلا : « فلا يستطيع أحد أن ينكر ان سلطانه ( القرآن ) السحري وسموه الروحي يسهمان في اشعارنا بأن محمدا كان ملهما بجلال الله وعظمته ! » •

ونراه لما يكتب عن العرب قبل الاسلام يقحم قوله : « ان المرأة كان لها منزلتها المرموقة عند العرب ومما دفعهم الى وأد البنات أحيانا غيرتهم عليهن لكيلا يملكهن رجال آخرون ويتزوجون بهن ! وان العرب كانت لهم حضارتهم وثقافتهم رغم عدم ملائمة الظروف الطبيعية ! » •

ونراه يفسر الحروب الاسلامية انها قاسية مناقضة لما كان عليه محمد بداية دعوته قائلا : « كان محمد يقول في بداية

---

(١) الذي ترجمه ـ غنيم عبدون بمراجعة د. احمد فؤاد الاهواني .

دعوته أنه « لا أكراه في الدين .. وأمهل الكافرين رويدا » ... وفي ذلك الوقت أقر النبي ابقاء السلام على اليهود والمسيحيين الذين كانوا يؤمنون بالله وكان لا ينبذ الا عابدي الاصنام .. لكن هذه الطريقة التي يبدو فيها التسامح الجميل والمسالمة العظيمة لم تجتذب الا قليلا من الانصار ولم تستمر وقتا طويلا . وفي الحق كان الاضطهاد كفيلا بأن يملأ روح محمد بالمرارة ، لذا يتضح العنف الذي راح يلعن به المشركين « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين » وهكذا وبالضرورة حدد هذا الرأي مشروعية الجهاد » .

وهكذا نرى المستشرقين كيف يفترون على الاسلام افتراءات كافرة جاهلة قاتلة خلال تعريفهم به وتأريخهم عنه ، ونرى الكثير من القارئين المسلمين مكبين على قراءة هذه الكتب الضالة زعما منهم أن فيها نصرة الدين المبين وانتصارا من الكافرين !

فالحق يقال : ان الاستشراق لون من ألأم ألوان التبشير ، لاءم نفسه مع ظروف الحياة .

**دعايات المبشرين ضد الاسلام والمسلمين :**

ان طريق التبشير لتوهين المسلمين لم يكن الدعوة الى

المسيحية والعمل على ارتداد المسلمين الى النصرانية مباشرة ، وانما كان طريقه تشويه الاسلام ومحاولة إضعاف قِيَمه ، ثم تصوير المسلمين في وضعهم الحالي بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضاري في عصرنا الحاضر .

فالمونيسنيور كولي في كتابه « البحث عن الدين الحق » يصور الاسلام كالتالي : « الاسلام في القرن السابع للميلاد » برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الاسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قوانين الاخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون ( يستشهدون في سبيل الله ) في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات ( الجنة ) ، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وافريقيا واسبانيا فريسة له حتى ايطاليا هددها الخطر وتناول الاجتياح نصف فرنسا ، لقد أصيبت المدنية ، ولكن هياج هؤلاء الأشياع ( المسلمين ) تناول في الاكثر كلاب النصارى ...

ولكن أنظر : ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سدا في وجه سير الاسلام المنتصر عند بوانيه ( ٧٥٢ م ) ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريبا ( ١٠٩٩ــ ١٢٥٤ ) في سبيل الدين فتدجج اوروبا بالسلاح

وتنجي النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الاخلاق الساذجة » [1] .

ويقول أديسون : « محمد لم يستطع فهم النصرانية ولذلك لم يكن في خياله منها الا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به للعرب » [2] .

ويقول المبشر الامريكي هنري جيسب : « المسلمون لا يفهمون الاديان ولا يقدرونها قدرها .. انهم لصوص وقتلة ومتأخرون ، وان التبشير سيعمل على تمدينهم »[3].

ويقول جولمين في كتابه تاريخ فرنسا « ان محمدا مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وان يبدلوا جميع الاديان بدينه ، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين ( المسلمين ) وبين النصارى ! ان هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس : أسلموا أو موتوا . بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم واحسانهم . ماذا كانت حال العالم لو ان العرب انتصروا علينا ؟ اذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين » [4] .

---

(١) ص ٢٢٠ ط ١٩٢٨ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ص ٨ — ٨١ من كتابه .

وهكذا ترى الدعايات الكافرة التبشيرية تتوارد على الاسلام عنادا او جهلا وتجاهلا ، وأكثر ما يرددونه قصة القيام بالسيف رغم انه لم يكن بداية الدعوة الى ثلاثة عشر عاما ، ثم لما قوي المسلمون بعد هجرتهم الى المدينة أخذوا يدافعون عن دينهم وأنفسهم وأعراضهم بدافع الانسانية والديانة واستئصالا لجذور الفساد والافساد ، وقضاء على أعداء الانسانية والديانة الالهية ، كما المسيح (ع) كان من آماله أن يضع السيف ولكن لم يجد انصارا لهذه البغية ، وهل يا ترى بالامكان فرض الايمان بالقوة ، بالسيف والنار ، ثم يبقى هكذا ايمان في أعماق القلوب يدافعون عنه بالنفس والنفيس !

**زملاء ثلاثة :**

... نجد زمالة عريقة بين التبشير والاستشراق والاستعمار فما أن وجد الاستعمار أن زميليه يخدمانه مجدين ، زودهما بالسلطان والمال ، أجل ــ انه التقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكّن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق ، وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق .

**منشورات الاستشراق :**

نجد منشورات : مجلات وكتب للمستشرقين تعني

تحريف الاسلام واذلاله وتشويهه تحت نقاب تاريخ الاسلام ، ومن أخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الامريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة (العالم الاسلامي) أنشأها صمويل زويمر في ١٩١١ ــ وطابعها تبشيري سافر، وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بهذه في روحها واتجاهها العدائي التبشيري واسمها Lemonde-musuLuan

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو ( دائرة المعارف الاسلامية ) بعدة لغات ، ومع الأسى نجدها مرجعا لكثير من المسلمين في دراساتهم ، رغم ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الاسلام والمسلمين.

في العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينيةوالسياسية والاقتصادية في الغرب بما كان يقوم به الملوك والامراء في الماضي من الإغداق على المستشرقين وحبس الاموال والمنح على من يعملون في حقل الاستشراق .

واتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار الى مجال التربية محاولين غرس مبادىء التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا ( مستغربين ) في حياتهم وتفكيرهم ، وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الاسلامية ( أنظر مجلة الاسلام ، ص ١١٤ الصادرة في ١٦ مارس ١٩٥٨ ) .

لا يعرف العقل ولا المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتأريخ الاسلامي وتشويه مبادىء الاسلام وثقافته واعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله ، وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي قام به الاسلام في تاريخ الثقافة الانسانية ، فان حاول أحدهم الجانب الحيادي في الاستشراق والتخفيف من أثقال التعصب تجد شياطينهم الحاقدين يهبّون في وجهه يطالبون بالموضوعية ، ومثال ذلك ما كتبه ( الفرد جيوم ) تعليقا على كتاب ( محمد في مكة ) من تأليف ( مونتجمري وات ) يهاجم ( جيوم وات ) لانه خرج عن الخط التقليدي للمستشرقين في بعض الاتجاهات ( أنظر ص ١٣٨ مجلة الاسلام ١٥ ابريل ١٩٥٨ ) .

واليكم فيما يلي جدولا من أسماء المستشرقين [1] :

**المستشرقون المعاصرون :**

ابرهام كاسين : عرف من نشاطه انه مؤلف كتاب ( اليهودية في الاسلام ) .

---

(١) ننقلها عن كتاب « الفكر الاسلامي الحديث » تاليف الدكتور محمد البهي وكما استفدنا الكثير منه خلال بحوثنا في هذه المحاضرات .

س٠ س أدمز : انجليزي باشر التدريس في الجامعة الامريكية بالقاهرة لفترة من الزمن ومؤلف كتاب ( الاسلام والتجديد في مصر ) المترجم من الانجليزية الى العربية تحت العنوان المذكور ٠

ادوارد أبر : استاذ في الجامعة الكاثوليكية في واشنطن ٠

ادوارد فرمان : من ألد أعداء الاسلام وأكثر المستشرقين طعنا فيه ، له كتاب بالانجليزية عن ( تاريخ المسلمين وفتوحاتهم ) ٠

ادوين كالفرني : أمريكي متعصب رأس تحرير مجلة ( العالم الاسلامي ) الامريكية ، لفترة من الزمن ، ومن محرري دائرة المعارف الاسلامية ، ومن الذين باشروا التدريس في الجامعة الامريكية بالقاهرة عدة مرات ، معروف باتجاهات تبشيرية سافرة ٠

أريك شرودر : مؤلف كتاب أمة محمد ــ الذي صدر بالانجليزية ١٩٥٥ ٠

ج٠ س٠ آرثر : مؤلف العناصر الصوفية في محمد الذي صدر بالانجليزية ١٩٥٤ ٠

آرثر جيفري : معروف بتعصبه السافر ضد الاسلام والمسلمين ومن كتبه (مصادر تاريخ القرآن) صدر بالانجليزية ١٩٣٧ ــ والكلمات الدخيلة في القرآن بالانجليزية والقرآن ككتاب ديني صدر بالانجليزية ١٩٥٢ •

ت• و• أرنولد : انجليزي اشترك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية ومن كتبه : الدعوة الى الاسلام ــ ترجم من الانجليزية الى العربية تحت العنوان المذكور ــ والخلافة ــ صدر بالانجليزية ١٩٢٤ ــ تراث الاسلام ــ صدر بالانجليزية ١٩٣١ •

ارنولد توينبي : انجليزي له أخطاء فيما كتب عن الاسلام والرسول ، في كتابه العالمي « دراسة في التاريخ » وخطؤه هنا شديد الخطورة ، لان الكتاب يعتبر أحسن دراسة موضوعية للتاريخ في العصر الحديث في نظر الكثير من الناس وخاصة الشرقيين ، والعرب منهم بوجه أخص •

إلدر : قسيس يساهم في تحرير « مجلة العالم الاسلامي » التي تصدر بالانجليزية في أمريكا •

الفرد كارلتون : أمريكي كان مديرا لكلية حلب ثم عين نائبا لرئيس جمعية البعثات الامريكية التبشيرية في الخارج •

اج.ا.ا.ايزنبرج: من محرري دائرة المعارف الاسلامية.

ل.ا.ا.ايزنبرج: من محرري دائرة المعارف الاسلامية.

و. ايفانو : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ف. بابنجر : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ا. باجليارو : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ج. بارث : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ر. باريت : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ر. باست : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ا. بيشوب : قسيس يساهم في تحرير مجلة « العالم الاسلامي » الامريكية .

بروان : انجليزي كان عضوا بالمجمع العلمي العربي في دمشق .

ل.ل. بروان : قسيس امريكي يساهم في تحرير مجلة « العالم الاسلامي » الامريكية .

س. س. برج : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

هـ. هـ. برو : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ا. ل. بروفنسال : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .

ر• بل : انجليزي كثير الخطأ في حديثه عن الاسلام والقرآن ومن كتبه : « أصول الاسلام في بيئة المسيحية ١٩٢٦ » ــ « القرآن » ١٩٣٧ ــ مقدمة القرآن ١٩٥٤ •

ر• بلاشير : فرنسي ومؤلف كتاب « مقدمة القرآن » ١٩٤٧ •

م• بلسيز : من محرري دائرة المعارف الاسلامية •
ف• بول : من محرري دائرة المعارف الاسلامية •
ت• ف• بوشنر : من محرري دائرة المعارف الاسلامية •

اس• بيفريدج : من محرري دائرة المعارف الاسلامية•
س• هـ• بيكر : من محرري دائرة المعارف الاسلامية•
ا• س• تريتون : من محرري دائرة المعارف الاسلامية •

ر• تشودى : من محرري دائرة المعارف الاسلامية •
توماس جوينبول : من محرري دائرة المعارف
ا• جروهمان : من محرري دائرة المعارف الاسلامية•
جو دفروي ديمومنز : من محرري دائرة المعارف الاسلامية وله كتاب عن الحج فيه كثير من الخلط والتشويه ( انظر ص ١٣ من العدد ١ من المجلد ٩ يناير ١٩٢٥ من مجلة جمعية الدراسات الشرقية ) •

و. جوركمان : من محرري دائرة المعارف الاسلامية.
ب. جويل : من محرري دائرة المعارف الاسلامية .
ج.ل.دلافيدا : من محرري دائرة المعارف الاسلامية.
وهكذا خمسة وعشرون آخرون .

من مؤلفي دائرة المعارف الاسلامية [1] :

ل. جوثير : فرنسي متعصب دينيا وجنسيا ، كثير التشهير بالاسلام والحقد عليه .

ر. روبرتز : انجليزي ومؤلف « القوانين الاجتماعية في القرآن » وهو دراسة مقارنة بين القرآن والتوراة في القوانين الاجتماعية ١٩٢٥ .

ستوك هورج رونجه : هولندي ومن محرري دائرة المعارف الاسلامية ، حارب الاسلام والمسلمين بكتبه وكان مستشارا لحكومته في شؤون أندونيسيا له كتاب « الاسلام » .

ومن المستشرقين الخطرين الذين تعد كتاباتهم حجة بين الغربيين وشبه حجة بين المسلمين :

ا. ح. أربري : الانجليزي المعروف بالتعصب ضد الاسلام ومن محرري دائرة المعارف الاسلامية ومن المؤسف

(١) راجع المصدر .

أنه استاذ لكثير من المصريين الذين تخرجوا في الدراسات الاسلامية واللغوية في انجلترا ومن كتبه :

الاسلام اليوم ١٩٤٣ ــ مقدمة لتاريخ التصوف ١٩٤٧ ــ التصوف ١٩٥٠ ــ ترجمة القرآن ١٩٥٠ .

هـ . ا . ر . جب : أكبر مستشرقي انجلترا ، من كبار محرري دائرة المعارف الاسلامية ، له كتابات كثيرة فيها عمق وخطورة ومنها :

طريق الاسلام ــ الاتجاهات الحديثة في الاسلام ــ المذهب المحمدي ــ الاسلام والمجتمع العربي .

س.م. زويمر : مستشرق مبشر اشتهر بعدائه للاسلام، مؤسس مجلة العالم الاسلامي الامريكية التبشيرية مؤلف كتاب « الاسلام تحدٍّ لعقيدة » ناشر كتاب « الاسلام » وهو مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني في سنة ١٩١١ بلكنو في الهند ، وتقديرا لجهوده التبشيرية أنشأ الامريكيون وقفا باسمه على دراسة اللاهوت واعداد المبشرين .

غ. فون جرونبام : من أصل الماني يهودي مستورد الى أمريكا للتدريس بجامعاتها وكان استاذا بجامعة شيكاغو

من ألد أعداء الاسلام ، في جميع كتاباته تخبُّط واعتداءعلى القيم الاسلامية والمسلمين ، كثير الكتابة وله معجبون من المستشرقين ومن كتبه :

اسلام العصور الوسطى ١٩٤٦ ــ الاعياد المحمدية ١٩٥١ ــ محاولات في شرح الاسلام المعاصر ١٩٤٧ ــ دراسات في تاريخ الثقافة الاسلامية ١٩٥٤ ــ الاسلام ١٩٥٧ مجموعة من المقالات المتفرقة ــ الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية ١٩٥٥ •

ا•ج• فينسينك : عدو لدود للاسلام ونبيّه ، كان عضوا بالمجمع اللغوي المصري ثم أخرج منه على أثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب حسين الهوارى مؤلف كتاب « المستشرقون والاسلام ١٩٣٦ » وحدث ذلك بعد ان نشر فينسينك رأيه في القرآن والرسول مدعيا ان الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته ، انظر ــ المستشرقون والاسلام ص ٧١٠ وما بعدها هذا والمعروف لفينسينك كتاب تحت عنوان « عقيدة الاسلام » ١٩٣٢ •

هؤلاء ومئات أمثالهم واليكم بعضا من مؤلفاتهم الخطيرة المشوهة للاسلام والشائعة الانتشار ولها شبه حجية عند المسلمين :

**الموسوعـات :**

دائرة المعارف الاسلامية صدرت بعدة لغـات حية ، موجز دائرة المعارف الاسلامية ـ دائرة معـارف الديـن والاخلاق ـ دائرة معارف العلوم الاجتماعية ـ الموضوعات المتصلة بالاسلام والعرب ـ دراسة في التاريـخ : القسـم المتصل بالاسلام ورسوله تأليف ارنولد توينبي .

**الكتـــب :**

« حياة محمد » سير وليام موير « الاسلام » الفـرد جيوم « دين الشيعة » د. م. دونالدسون « تاريخ شـارل الكبير » القس تيربن « الاسلام » هنرى لامنس « الاسلام تحد لعقيدة » المبشر ذويمر « دعوة المئذنة » كينيت كراج « الاسلام اليوم » ا. ج. آربرى « تاريخ مذاهب التفسير الاسلامي » جولدزيهـر « تاريـخ العرب » فيليب حتـي « اليهودية في الاسلام » ابراهام كاش « عقيدة الاسلام » ا.ج. فينسينك « الحرب والسلام في الاسلام » مجيـدي قدوري « تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستوريـة في الاسلام » د. ب. ماكدونالد « الاتجاهات الحديثـة في

الاسلام » « طريق الاسلام » هـ.ا.ر.ر. جب وكذلك « التصوف في الاسلام » ر. ا. نيكلسون « مصادر تاريخ القرآن » آثر جيفري « أصول الاسلام في بيئته المسيحية » ر. بل ، وله « مقدمة القرآن » « التطورات المبكرة في الاسلام» د.س. مرجوليدث ، وله«محمد ومطلع الاسلام» وله « الاسلام » وله « الجامعة الاسلامية » « اسلام العصور الوسطى » ج.فون جرونبام ، والى العشرات العشرات من هذه التأليفات السامة للمستشرقين ، وعلى المسلمين ان ينتبهوا من غفوتهم وغفلتهم .

هؤلاء الاعداء الثلاثة : الاستعمار والتبشير والاستشراق ــ لا يزالون في محاولة تشويه الاسلام ، ولكنهم لا يجدون بغيتهم الا عند الجهال الذين لم يدرسوا الاسلام ، وأما الذين درسوا الاسلام صحيحا فهم يعرفون مدى العناد والتعصب العارم من هؤلاء الشياطين ..

فالى الحضارة الاسلامية لنعرف انها هي الحضارة الخالدة التي لا يبليها مر الزمن وكرور الدهور :

**الحضارات الاسلامية :**

ان الاسلام حضر البشرية مبدئيا بكل ما للحضارة من

معاني سامية ـ عقلية وعلمية وخلقية وايمانية ـ اقتصادية وصناعيـة وزراعيـة وعماليـة ـ سياسيـة وحقوقيـة وجزائيـة و ..

فالاسلام صانع الحضارات الخالدة وكتاب شريعتـه ( القرآن ) ككتاب التكوين لا يعرف غوره وعمقه ، وانمـا على البشر ان يسبر غوره لكي يحصل على الجديـد مـن صالح الانسان وما يسعده في الحياة .

**الحضـارة العلميـة :**

.. نرى القرآن يحرض البشرية على التقدم في العلم دون ان يحد له حدا « وقل رب زدني علما » وعلى التعقل والتفكر في رموز الخلقة وفي صالح الحياة لحد يعتبر غير المفكر المتعقل كالانعام « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل .. » ويعتبر طلب العلم عبادة كأفضل العبادات اذ كلما ازداد الانسان معرفة وتعقلا ازداد تأكدا من صحة الاسلام ، وازداد طاعة لله تعالى وتطبيقا لاوامره .

ومن ناحية أخرى يتحدى العقلاء والعلماء من الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القـرآن ولو كان بعضهـم لبعض ظهيرا، ونرى العلماء من كل الطوائف والاديان طوال

أربعة عشر قرنا لم يستطيعوا ان يعارضوا القرآن ولا في آية واحدة ، بل اننا نرى العلم يخدم ويفسر القرآن على تعبير ابن عباس « ان للقرآن متشابهات يفسرها الزمن » .

أليس هذا دليلا على أن القرآن يضم من العلوم اللانهاية ، وأنه أهم وأعظم ما عرفه البشر طوال التاريخ من كتب ومن أفكار تحرض على التقدم في العلم ..

ان دراسة القرآن دراسة واقعية متحللة عن التعصبات تقنعنا أنه كتاب لا مثيل له في كل الحضارات التي تتطلبها الحياة الانسانية في كل المجالات .

فليتعب أعداء الاسلام أنفسهم ليل نهار في فريتهم عليه انه يعاند العلم ــ لا يا أغبياء ــ انه يعاند الجهل والجهال كأمثالكم ــ ويعاند حياة الحيونة والشهوة التي أنتم مكبون عليها وتختصون الحياة بها ثم تعتبرون حياة الانسان التي يهدى اليها الاسلام ــ تعتبرونها حياة الجهل! لا يا أغبياء !..

**المسلم الكادح :**

... نرى القرآن لما يريد التعبير عن واقع الانسان المسلم يخاطبه انه : كادح ــ لا كدحا في الحيونة فحسب ،

ولا في الروحانيات فحسب ، انما كدحا شاملا لصالحه في المعرفة والتطبيق « يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » انه يريد من الانسان ان يهدف في كدحه ربه ، يدرس كيفية الكدح ومداه من ربه ، ثم ينحو في كدحه منحى الرب ، هدف واحد خالد سام يخلد الانسان في كدحه ، دون الاهداف الفانية التي تفني الانسان وتهدره هدرا .

**تحرير الانسان :**

... لقد كانت عقيدة التوحيد وإفراد الله بالعبادة طريقا مباشرا لتحرير الانسان من سلطان الآلهة المزيفة والملوك المستبدين والمتمولين العاتين والاقوياء الظالمين ، وكانت نقطة انطلاق لتحرير البشر من أنواع العبوديات الفكرية والاجتماعية والسياسية ومن تسلط بعضهم على بعض ، ولاشعار الناس بالمساواة فيما بينهم باعتبار أنهم كلهم عباد الله وخلق من خلقه امتازوا بكرامة الآدمية .

**ذاتية الاسلام :**

اننا نعيش في عصر تلتقي فيه المذاهب والحضارات ولذلك فقد التبست المفاهيم وغطت الاسلام أحيانا او أدخلت عليه بعض الالتباس .

فمن المراحل التي مرت على الاسلام هي مرحلة الاتهام الموجه اليه من الاستعمار والاستبشار والاستشراق ، وقد وقف دعاة الاسلام يدافعون عنه على انه متهم في قفص ، فكأن الاسلام مجرم يراد ان يدافع عنه .

ثم مرحلة أخرى أصبح الاسلام فيها يقاس بمقاييس غيره او يقوم بقيم غيره ــ : فالاسلام صالح لانه مبني على الديمقراطية او لانه متطور ! كان هذه المقاييس هي الاصل لكي نحاول أن نقوّم الاسلام بهذه القيم التي نستعيرها من سائر المذاهب السياسية والاقتصادية والفكرية ، رغم ان للاسلام ذاتية ومقاييس خاصة ، وانه بناء لاكمل الحضارات الخالدة .

**التطور في الاسلام :**

وقد يقال ان الاسلام متطور يلائم كل أطوار الحياة ، فلو أنهم يريدون من التطور تطور الاصول والقوانين والقيم الاخلاقية ، اذا فهو كذب وفرية بيّنة على الاسلام ، فان التطور في الحياة قد يكون تحسنا وارتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا بل انقراضا .

ولو كان القصد من التطور ان الاسلام يطور الانسان من النقص الى الكمال ومنه الى الاكمل ، وان له قوانين

وضوابط عامة يمكن ان تطبق في كل العصور دون ان يقصر عن اعطاء متطلبات الحياة ، فهذا حق ، الا أنه قل من يقول به او يفهمه •

**ازدواج الشخصيـــة :**

•• من المسلمين من هو مسلم في شعائره وغير مسلم في تفكيره وهؤلاء نوع من المخلوقات الفكرية او النفسية في زماننا ، ومن اخطار الازدواجية في الشخصية ظاهـــرة تأويل كثير من احكام الاسلام من اجل المطابقة بينها وبين المذاهب الاخرى التقدمية ــ على حد تعبيرهم ــ فيحللون شطرا مما حرمه الله تعالى معتذرين انه اصبح عادة وسنة للحضارة ، والاسلام دين الحضارة ، او ان علة الحرمـــة كذا وكذا ــ مما يزعمونه علة لها ــ فاذا زالت العلة زال المعلول ، أو أن الغاية تبرر الوسيلة كما نسمعه كثيرا بين المسلمين المتقدمين •

ومن جراء هذه التأويلات استعمال ألفاظ اصطلاحية جديدة فانها تجر الى نتائج خطيرة جدا ، ذلك ان نقـــل الالفاظ من عقيدة الى عقيدة أو نظام الى مذهب او نظام آخر يجر معه ملابساتها والمفاهيم المتصلة بها في تلـــك البيئة التي كانت فيها •

فمثل ألفاظ الديمقراطية والاشتراكية والحرية التي نشأت وعاشت في اجواء وبيئات معينة ، واقترنت بمفاهيم ونظريات خاصة ، اذا استعملناها-حين نعبر عن نظام الاسلام ومفاهيمه-تتعرض لخطر ادخال مفاهيم غريبة او احداث انحراف في الاتجاه .

ومثل : ان الطبيعة أعطت لبنان مناخا صالحا ومنحت سواحلها أمطارا كثيرة ، أو أن الطبيعة غضبت فبخلت بالامطار وحركت أمواج البحر ..

ان هذه التعابير وليدة نظرة القرن الثامن عشر في اوروبا حين أحلوا الطبيعة محل الله فألهوها وانكروا وجود الله ، وهي نظرية الحادية واضحة ، وهذه الالفاظ تلقين ضمني لاشعوري لنظرية الالحاد ولا سيما بين الناشئين .

ومن ذلك تبديل اليمين بالله باليمين بغير الله كما يقال : باسم الشعب ــ باسم الرئيس ... أو اشراك غير الله بالله كما يقال باسم الشاه وباسم الله ــ او الشعار المثلث « الله ــ شاه ــ الوطن » في حين يرى الاسلام كل ذلك اتجاهات وثنية .

وكما بدل متعلق الايمان بآلهة الارض او الوطن أو القومية العربية .

فقد تستخدم ألفاظ جديدة لتحمل معاني دينيـــة ولكنها تضيف اليها ما حملته من مفاهيم ضالة ، وقـد تستخـدم ألفـاظ وصلاحات دينية ويراد منهـا مفاهيـم ومصاديق غير دينيـة ، وهكذا يبـذر الالحاد في قلـوب الناشئين

**الديموقراطيـة والاشتراكيـة :**

ومن هذه الالفاظ الجديدة الديموقراطية والاشتراكية اذ يقال ان الاسلام هو النظام الديموقراطي والاشتراكي ، رغم انهما منحرفان عن النظام الاسلامي •

**الديمقراطيـة :**

ان الديمقراطية في روحها وعند اصحابها نزعة تقابل الاستبداد الفرديواحتكار طبقةأو أسرةٍ الحكمَ والسيادة، فهي اشراك الشعب أو اكبر عدد منه في الحكم ، فهـل بامكاننا القول : ان الاسلام ليس ديمقراطيا لكي يستفاد انه استبدادي ؟ أو يقال انه ديمقراطي رغم التنافي بينهوبين الاسلام في شروط عدة ، فان الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا في أوروبا اقترنت بأفكار ومفاهيم عن الانسـان والمجتمع ، وانبثقت عن فلسفة لا يقبلها الاسلام ، فمـن

أسسها هي أن الفرد هو الاصل في الدولة ، والدولة مهمتها مقصورة على تنسيق حريات الافراد حتى لا تتصادم .

فهذه الفلسفة تؤدي الى المساواة بين الايمان والالحاد في مجال الفكر ، وبين الاباحية والتقيد في مجال السلوك الخلقي ، وبين الرأسمالية المترفة الطاغية والتقيد لمصلحة الجماعة ، والاسلام لا يقبل التسوية بين هذه الاتجاهات، ولا يمنح الحرية المطلقة التي تؤدي الى الباطل والرذيلة والظلم .

ثم تباين آخر هو ان الحكم في الاسلام ليس الا لله تعالى وعلى الدولة تطبيقه ، دون أن يسمح لها بتقنين شيء أو نقصه عن حكم الله ، ولكنه في الديمقراطية حكم الشعب المتمثل في الشورى . اذا فهما مذهبان مختلفان في اصولهما وجذورهما وفلسفتهما ونتائج تطبيقهما ، اجل ان الاسلام ذو نزعة ديمقراطية تمنع استبداد الحكام ويمكّن الشعب من مراقبتهم ومحاسبتهم ، ويراعي مصلحة المجتمع حسب حكم الله لا كما يهواه المجتمع .

**الاشتراكية :**

نقول عن الاشتراكية ما قلناه عن الديمقراطية بالقياس للاسلام ، فاذا فهمنا من الاشتراكية مذهبا شاملا له

فلسفته ومفاهيمه ونظامه الاقتصادي كالشيوعية التي هي أحد أشكال الاشتراكية ، فان الاسلام يباين الاشتراكية ، ولكن للاشتراكية معنى آخر منتشرا في العالم وهو اشراك جميع افرا دالشعب في المنافع والمصالح ، وعدم استثناء فئة من الناس بالمنفعة ، وتدخل الدولة في تقييد الفعاليات الاقتصادية وفقا للعدالة ، والاشتراكية بهذا المعنى تتلاءم مع الاسلام في مفهومها العام مهما اختلفت معه في التطبيق أحيانا .

واذا صنفنا المذاهب صنفين : احدهما مبني على مصلحة الفرد وحريته المطلقة وهو المذهب الفردي ، والاخر مبني على مصلحة الجماعة او المجتمع كله وهو المذهب الجماعي ، فالاسلام مع مراعاة التوفيق بين مصلحة الفرد والجماعة هو اقرب الى الثاني .

لذلك نقول لا يجوز التعبير عن النظام الاسلامي بالديمقراطي او الاشتراكي ، فانما هو نظام خاص عادل جمع فيه بين حقوق الفرد والمجتمع ، لا أصالة الفرد ولا اصالة المجتمع ، انما الفرد ضمن المجتمع .

**الحضارة الاقتصادية في الاسلام :**

... اننا لا نقدم الحضارة الاقتصادية هنا الا لانها

أصبحت الميزان الوحيد ومقياسا للقيم الانسانية في زماننا وان كنا قدمنا شطرا قليلا من الحضارات المعنويةالاسلامية ايضا .

ان نظام الطبقات في الاسلام ومعالجة الصراع الطبقي الذي نراه في الاسلام ، لا نجد له مثيلا عبر التاريخ ولن نجده حتى آخر العصور البشرية .

ان الاسلام يجرح الرأسمالية والشيوعية معا فهو بين النظامين نظام مستقل عادل وسط .

وقد يظن السطحيون ان وجود مبادىء معينة في النظام الاسلامي قد تميل به نحو اليمين او اليسار وهذا افتراء عليه .

فان مبدأ الملكية ــ مثلا ــ يشترك في الاعتراف به النظام الاسلامي والرأسمالي ، وتحريم الفائدة الربوية يوجد في كلا النظامين أحيانا كما في البعض من الرأسماليين المسلمين ــ وهذا لا يعني ان الاسلام رأسمالي ، انه نهج مستقل يستقي من وحي السماء ثم يمضي في مجراه المرسوم لنفع الناس وحماية مثلهم العليا .

ان الشيوعية عدو واقف على ابواب البلاد يتربص، والرأسمالية عدو داخل الحدود يعربد ويغتال ، وعلى

المسلمين تعريف الاسلام اقتصاديا واحراج الموقف على عدويه واخراجهما من البلاد ، ولا تكفي الثرثرة بأن الشيوعية فساد والحاد ، وانما معالجة المشكلة هي الكفاح العلمي والتطبيقي الاقتصادي الاسلامي .

**دوافع الشيوعية :**

ان ثالوث الجهل والفقر والمرض لهو من اكبر الدوافع الى الشيوعية وانما يعالجها الثقافة الاسلاميةوالكفايةالمالية على ضوء الاقتصاد الاسلامي ، ثم محاربةالامراض الروحية والجسمية على هذين الضوئين .

ان سياط الرأسمالية الغاشمة تكوي الجلود ، وطالما القرآن يحارب قارونية الحكرة والاختزان لاصول الحياة المادية ، وطالما يحارب رجالات الوحي هؤلاء الاغنياء الاغبياء ، ولذلك تراهم انهم ألد أعداء الدين المحاربين اياه ، ولكن البعض من رجال الدين ــ او بالاحرى بعض المعممين من غير رجال الدين ــ يكتفون بالنصيحة ، أو يتركون الاثرياء في اثرائهم يهوون ، لانهم يرزقونهم ويرضونهم ويغضبون الله فلا يبالون .

اننا لو اغمضنا النظر عن الالحاد الفلسفي في

الشيوعية ، ثم قايسنا بينهاوبين الرسمالية لوجدناالشيوعية الاقتصادية اقرب الى الاسلام !

ومما يزري ويخجل ان جماهير المسلمين اشبه بالغيوم الكثيفة حول شمس الاسلام ، تميت شعاعه وترد نهـاره ظلاما طويلا ، ولا يشعرون بالمسؤولية الهامة امامألله وامام الناس ، لا يبرزون الاسلام الحقيقي ثم لا يجاهدون فـي سبيله .

لقد اصبح الاسلام تراثا عقليا مجردا بين القليليـن من المسلمين ، ثم لا اسلام اطلاقا بين الاكثرية الساحقـة منهم .

ان اليهودية اضحت صهيونية معتدية ، والمسيحيـة أضحت استعمارا خبيثا ، والمسلمون بخلوا عن الحفـاظ على اسلامهم عقليا وتطبيقيا ، ولذلك كله نرى الشيوعية والرأسمالية ــ المذهبين الكافرين ــ يتغلبان على الثلاثـة ــ على سواء ــ ثم الصراع بينهما انفسهما ليس نزاعـا بين الكفر والايمان ، ولكنه غلاب بين لونين من ألوان الطغيان .

ثم قد يمتاز الاسلام أنه في بطون الكتب موجـود بأكمله ، رغم ما تلتصق به اشياء غريبة ، فانها يعرفها النقاد

بسهولة دون أن تُحسب خطرا عليه ، يعرفونها بعرضها على كتاب الله وعلى العقل السليم والواقع الواضح ، الذين جعلهما القرآن حجة من الحجج .

هذا ــ رغم اننا لا نجد وحي السمـــاء خالصا بـــين اليهود والنصارى لا في العقلية ولا في التطبيق ولا في التوراة ولا الانجيل فضلا عما سواهما من كتب !

**هـــدم الطواغيـــت :**

ان الاسلام ثورة على المترفين البخلاء الهاضمين حقوق الفقراء « وفي اموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ».. انه يمجد الايثار دون ان يكتفي بالعدل ، ونحن الان لا نطالب الناس بهذا الايثار العالي ، اذ كيف نطلب الفضـــل ممن يضنّ بالعدل ، او نطلب التكـــرم والسماحة من يضن بالحقوق الواجبة ان يدفعها !

لذلك علينا ــ على ضوء الاسلام العدل ــ ان نخلع اسنان الطبقات المفترسة حتى نمنعها من القضـــم ، وان نروض جماحها ، حتى لا تعاود ما اقترفته من اثـــم ، وان نصحح أفكار العامة والخاصة حتى لا يبغي أحد على أحد ، وحتى يعود الجميع عبا دالله اخوانا .

وأما المجتمع المشحون بالمحرومين المظلومين ،المنكوب بالطغاة والجبارين ، فهيهات ان تتحقق فيه الاخوة ، وأية أخوة بين الظالم والمظلوم والطاعم والمحروم ؟

من المزعج ان نرى ذل الاحتياج على جبين يتصبب عرقا ويتلوث غبارا ، وان نلمح الايدي المختبئةفي القفازات تلهو بالذهب والفضة ، ثم من المؤسف المبكي أنهم يتهمون القدر الالهي في هذه الطبقية الظالمة ، رغم ان النظام الاقتصادي الاسلامي يعالجها ، فهل يا ترى بالامكان ان يناقض حكم القدر الالهي حكم الشريعة الالهية ؟

فهذه من التهم التي تفسح المجال لاعداء الدين ليعتبروه مخدرا وترياقا للفقراء المعوزين .

كلا ــ فكما ان الظلم محرم في شريعة الاسلام ، كذلك الانظلام محرم ، فلا يجوز للفقير المهضوم حقه فرديا أو جماعيا ان يصبر على كظة ظالم ، فعلى الفقراء المعوزين المتعبين انفسهم في تحصيل المعيشة ، الذين لا يجدون ما يعيشون به ، عليهم الثورة الهدامة على الاغنياء المحتكرين المختزنين ، ثورة على ضوء الحكم الاسلامي « خذ من اموالهم صدقة ... » « فاعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ... » « الارض الميتة انما هي لمن يحييها .. » دون أكلة الارض وقطاع الطرق .

وعلينا ــ اسلاميا ــ اذا رأينا ذكاءً أخّره الاهمال ، وغباء قدّمته المحاباة ، او قاعدا ينال الخير وعاملا أعــوزه القوت القليل ، علينا أن نحارب الظالمين المستأثرين ، فمن الإجرام والفحش ان نقول في تبرير هذه الاوضاع المقلوبة « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » فان هــذا كقــول سفهاء العامة عندما يجدون رجلا يرتكب معصية « يضــل من يشاء ويهد يمن يشاء » وغير ذلك من الكلمات المحرفة المعاني التي يريدون بسوقها هدم قاعدة الامــر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وترك الناس فوضى تصرفهم الشهوات والنزوات • بل الواجب الذي امر به الدين أن نضرب على ايدي الظالمين وان نعترض على كل تصرف شائن •

اننا لا ننكر ان الارزاق تختلف بمشيئة الله ولكنــه لا يعني جواز الابقاء على فوضى المعيشة دون ان نطبــق حكم الله في خدمة الفقراء •

**معالجــة الفقــر اسلاميــا :**

ان هناك ارزاقا واسعة تتجت عن الخيانة والسرقــة والسحت وليست من رزق الله ، فالواجب هو الحكم العدل فيها وردها الى اصحابها •

وان هناك ارزاقا واسعة تتجت عن البخل عن دفع حقوق الله والواجب اخذها واعطاءها لمستحقيها •

ولو ان الحقوق الالهية دفعت كما يحق لم يبـــق فقير مسلم على وجه الارض ، ولم تبـق حاجة فرديـة او جماعية ــ مادية او معنوية الا تمضية .

أجـل ان الله تعالى عالج الفقر والمسكنة تكوينيـا وتشريعيا : ان يكدح الانسان حسب مستطاعه دون كسل وبتل ، فان اعوزه شيء فمن بيت مال المسلمين ، المجموع فيه الضرائب الاسلامية المستقيمة وغير المستقيمة : اعني الزكوات والاخماس والكفارات وسائر الانفاقات الواجبة والمندوبة .

**تزويـر علـى الـديـن :**

وكل دعوة تحبب الفقر الى الناس أو ترضيهم بالدون من المعيشة ، او تقنعهم بالهون في الحياة ، أو تصبرهم قبول البخس والرضا بالدنية : فهي دعوة فاجرة يراد بها التمكين للظلم الاجتماعي ، وارهاق الجماهير الكادحة في خدمـة فرد او افراد ، وهي كذب وافتراء على الاسلام .

ونعني من الفقر هذا ــ الناتج من احـد الامرين السالفين ــ لا ان كل من كان أقل مالا من غيره عليه أن يثور على من فوقه دون أي مبرر الا انه اغنى منه ! .. كلا : انما الفقر الناتج عن ظلم الاغنياء او قصور الفقراء .

يقول الامام امير المؤمنين علي عليه السلام « لو مثل لي الفقر رجلا لقتلته » يعني أن واجب المسلم ان يحارب الفقر ، يحـارب دوافعه فيه وفي مجتمعه ويجتث جـذوره بالكدح ويحمل الاغنياء على الانفاق ومنعهم عن الظلـم والخيانة .

**سـوء فهـم :**

وقد يتمسك بالقول « الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر » تبريرا للفقر واسكاتا للفقراء عن ان يأخـذوا حقوقهم ، أو تبسيدا للاسلام عن النظر في ترقية الجانـب الاقتصادي من الحياة ، وهما تهمتان على الاسلام ناتجتان من سوء الفهم .

لا يا اخي ــ لا تعني هذه العبارة الا التعبير عن واقع المؤمن فيحياته الايمانية ، وانها سجن الشهوات اللامحدودة وان رزق المؤمن الملايين وملك الشرق والغرب فانه في سجن الايمان ، والكافر بتحلله من قيود الشريعة وتحرره في الشهوات كأنه في الجنة ، ثم المؤمن يرى جنته في الاخرة « فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين » والكافر في سجن الاخرة « كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » .

اذا فهذا الحديث وأمثاله لا يعني تعطيل المؤمن عن تحصيل المعاش ، أو تجميده عن الاخذ بحقه المشروع عمن يمتصون دماء الفقراء .

اننا نرى الدنيا بمقوماتها المادية الهائلة سلاحا خطيرا في ايدي اللصوص ، ووسيلة فعالة لتعكير الامن وارتكاب الجريمة واشاعة الفساد .

ولكنها في ايدي حماة الحق المؤمنين بالله ليست الا ذريعة لتحقيق الحق واذلال الباطل ، فالمتدينون ان فقدوا هذا السلاح فكيف يؤدون رسالتهم في الحياة ، أم كيف يتماسك كيانهم فيها « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » فالدنيا ـ اذا ـ زينة الله لعباده المؤمنين يسلكون بها مسالك الحق ، وهي زينة الشيطان في ايدي الفاسقين يحاربون بها الحق ويعمرون بها صروح الباطل ، فأي الفريقين أحق بها ان كنتم تعقلون؟

اجل ـ اننا لا ننكر أن الرزق الواسع يجعل بعض المؤمنين ضعفاء الايمان ، يجعلهم من أهل الشهوات ويخرجهم عن سلك العبودية وكما يقول الله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل

بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير » (٤٢ : ٢٧) الا ان هذه الانتكاسة الجانبية عن الايمان لا تمنع كل المؤمنين عن التوسع في الرزق ، وانما على ضعفاء الايمان اذيكملوا ايمانهم لكي يزيدوا نشاطا في سبيل الله بذريعة المال ، ولا يمنعهم كذلك ان يخلصوا انفسهم عن بؤس الفقر وذله ، ولذلك لا نرى نصا يمنعنا عن تحصيل المال ، وانما الممنوع التفرغ الى تحصيل الدنيا والاعراض عن الاخرة !

فكم بحريٌ للمؤمن أن يضع قيودا فولاذية على شهواته الطائشة ، لا يترك غرائزه تلعب به فلا تملكه نفسه الاثارة بالسوء بل هو يملكها بعقله ، فلا ينطلق في الدنيا ـ كأهلها ـ حيوانا لا عقل له ولا ضمير .

وانما دفع المؤمنين الى الفهم المعوج عن تحصيل المال ، أنهم لم يجدوا من أغنيائهم الا كل شر ورذيلة ، فوقع في أوهام الجماهير البائسة ان الغنى والفسق قرينان متلازمان .

ولكن على المؤمن ان يكون كادحا في المرحلتين ، كدحا في تحصيل المال وكدحا في التوسل به الى تطبيق أحكام الله ، فانما الحياة عقيدة جهاد .

ومهما يحقر الاسلام المال فانما يحقره في ايدي المترفين

من الكفار « فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون » ، « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » .

فهذه الآيات لا تعني الا امرين : ان المال في ايدي الكفار ليس خيرا ، انه لديهم ذريعة للمزيد من الفسق فالعذاب فلا تمدوا اعينكم اليه ـ ٢ ـ وانتم لو فقدتم هذه الاموال فرزق ربكم خير وابقى ، وانتم مرزوقون بالرزق الرباني دنيا وعقبى : بالايمان دنيا وبالثواب عقبى. فهل يا ترى أن معنى ذلك كره بالغنى لابناء الاسلام وحضهم على القنوع البليد والمعيشة المقبوحة ؟

كلا ـ ان الاسلام اذ يُشرب أتباعه روح الاعتزاز بالعقيدة ـ ولو انهزمت ماديا امام كنز غني مدلل ـ لا يكره لاتباعه ان تمتلىء خزائنهم خيرا وان تفعم نفوسهم أمانا وطمأنينة ، وانما يمنعهم عن الترف والسرف في المعيشة وترك الانفاق بالتخزين والتكنيز .

وبالرغم من ان مصادر الرزق المبثوث في تراب الارض وامواج البحر وذخائر المناجم وغير ذلك لم يدركها جفاف ، بل انه من الممكن ان تكفل اضعاف ما على الارض

من سكان لو انصف الناس وتعاونوا وتطهروا من الغشم والافتيات والاستبداد •

بالرغم من هذا كله ضاقت عليهم الارض بما رحبت ونرى في مجتمعنا أمام لقمة القوت وجوها كالحة، وأسارير مقطبة ، وعيونا غائرة ، ونفوسا حطمها الفشل ، وأبدانا أهزلها الضياع ، وذلك لان معركة الخبز الخالدة تدور رحاها على غير نظام متبع او قاعدة مرعية اسلامية أو انسانية على اقل التقدير ، ومن البديهي ان الاخوة التي أمر الاسلام بها بين الناس في الانسانية ، وبين المؤمنين بالايمان ، هذه الاخوة لن يكون لها وجود في الاحوال التي يختل فيها التوازن المادي اختلافا فاضحا بين بعض البشر وبعضهم الاخر •

ان الشلل الاقتصادي لا يقف لحده ، بل يخلف الشلل العقلي والعقائدي ايضا وكما يقال : « الناس على دين ملوكهم » ويقول القرآن في حوار ينقله عن السادة والاتباع بعد ان دخلوا الجحيم : « ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين • قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم قوما

مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا ••• » •

فاذ قد نرى بلادا تصطبغ احوالها الاجتماعية بهذه الصبغة السوداء ، وتقوم فيها الامور على ان جماهير غفيرة ترزقها طائفة قليلة ، فا نمصير هذه البلاد الى شر لا ريب فيه ، ما لم تسارع فيها الى تحرير الجماهير من العوز المادي وما يترتب عليه من شلل عقلي •

نحن لا ننكر ان هناك نفرا قليلا ممن استعبدوا ماديا لم يستطع سادتهم استعبادهم معنويا ، ولكن القاعدة لا تؤسس على هذه القلة القليلة ، أفهل تترك الباقين ــ ماديا ومعنويا ــ صرعى الاغلال ؟

ثم نرى من جراء ذلك الضعف النفسي الى أن يصبح هؤلاء الفقراء عبيد الاصنام الحية من البشر ، ثم الفساد السياسي ثالثة الاثافي من صنوف البلاء التي لا يصح معها اخاء ولا يسلم مبدأ •

**الضرورات ثم الكماليات :**

وهذه قاعدة عادلة أكد عليها الاسلام انه ما دامت

ضرورات الحياة فاشلة فالكماليات لا محل لها وهي ظالمة.

بلغ عمر بن عبد العزيز ان بعض اولاده اتخذ خاتما واشترى له فصا بألف درهم فكتب اليه : « اما بعد فقد بلغني انك اشتريت فصا بألف درهم فبعه واشبع به ألف جائع واتخذ خاتما من حديد واكتب عليه « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » .

قال يحيي بن سعيد بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها منهم ، فقد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس ــ قال : فاشتريت بها رقابا فاعتقتهم!

**من اين هذا !**

ورغم ان الاسلام لا ينكر المِلكية بل ويقرها ، لكنه يضعها تحت الوصاية الدقيقة فيرفض كل تملك باطل ويسأل كل مالك : من اين لك هذا ؟ ليعرف أهو حق فيبقيه له ، أم لا فيسلبه اياه ؟

**ارفع الي حسابك :**

كما الامامأمير المؤمنينعلي عليه أفضل الصلاةوالسلام كان يراقب الامراء فقد كتب الى بعض عماله : « بلغني

عنك امر ان كنت فعلته فقد اسخطت ربك وعصيت امامك، بلغني انك جرت الارض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك ، فارفع الي حسابك واعلم ان حساب الله اعظم من حساب الناس والسلام » . اجل انه ليس في نظر الاسلام استئثار الا بالحق والعمل كما يهدي اليه كتاب الله « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

**الملكية في الاسلام :**

ان الاسلام يقتل الفقر بالعدل في القسمة كيلا يقتل الفقر الشعب . ففي حين انه يقر الملكية الخاصة يقيدها اولا واخيرا من حيث التحصيل ومن حيث المصرف ، حفاظا على تقارب الطبقات وتآخيها .

ان الاثرياء المترفين ممن يدعون الاسلام يختبئون احيانا لتبرير موقفهم من تخزين الثروات ، يختبئون تحت ستار نصوص يفسرونها كما يهوون ، أو عملاء يشترون منهم حكم الله ، فقد يستندون الى آيات الزكاة بأنه **لا حق في أموال الاغنياء ما سوى الزكاة** « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ... » ثم يستحلون الثروات المضخمة المستفادة من الخيانة والأثرة بنذر قليل يدفعون لمن يريدون من الفقراء أو العملاء المتسمين بالعلماء .

مع العلم ان اكثر الاملاك التي غنمها أثرياء المسلمين في هذه الاعصار لا تعتمد في جرثومتها ولا في بنائها على قواعد الشرع ، فما غناء الزكاة في هذه الحال ؟

أنذا سرق رجل « تفتيشا » من اموال المسلمين ، أيكفيه ـ لكي يستحله ـ أن يطعم منه بعض المساكين ؟

او اذا بنى رجل قصرا من دماء العمال والاجراء ، استطاع ان يأمن جانب الدين باستئجار بعض «الفقهاء !» يقرئون في جوانبه ما تيسر من آيات الذكر الحكيم ؟

**هل الزكاة فقط ؟**

ثم الموضوع نفسه : فليس صحيحا ما يقال : ان الزكوة فقط هي حق الله في المال ، وهي في الغلات الاربع والانعام الثلاث والنقدين .

فاذا كان فرض الانفاق محصورا في هذه الاموال التسعة ـ فماذا اذا مصير سائر الاموال الطائلة التي هي الاكثرية الساحقة من الثروات ؟ وماذا نصنع بنص قوله تعالى: وفي «أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » أفلا يصدق المال على غير هذه التسعة ؟! أهي معفو عنها لان الفقراء ـ وسائر الحاجات في دولة الاسلام ـ يكفيهم هذه القلة القليلة من المال ؟

واذا كان الانفاق الواجب محصورا في هذه التسعة فماذا تعني الآية الصريحة في غيرها « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ( ٦ : ١٤٠ ) .

فهل ان الجنات المعروشات وغير المعروشات لا تثمر الا الغلات الاربع بخلا عن الفقراء ؟ أم ان الزرع فيها يخص هذه الغلات دون سواها ؟ أم ان الزيتون والرمان من هذه الاربعة ؟ [1] .

كلا ان الانفاق مفروض في كل الاثمار . وانما الآية تذكر شطرا فيها ثم تنهي عن الاسراف فيما بقي بعد اخراج حقه .

فهذا تحديد للمالكية من ناحيتين ــ ان شئت سميته زكاتا او انفاقا واجبا غير زكاة فلا مشاحة في الاسماء ولا يحتاج الفقراء ايضا الى الاسماء .

ثم لو كان المفروض في الاموال انما هو الزكاة فلماذا

---

(١) لمزيد الايضاح راج كتابنا « الفقه على ضوء القرآن » .

يمنع القرآن عن تكنيز الاموال قائلا « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ( ٩ : ٣٥ ) •

فهل ان كنز المال بعد اخراج الزكاة لا يصدق عليه الكنز ، على حد تفسير كعب الاحبار لتلميذه عثمان خليفة امية « نظر عثمان الى كعب الاحبار فقال له يا ابا اسحاق ما تقول في رجل أدى زكاة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء ؟ فقال لا ــ ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شيء ــ فرفع ابوذر (رض) عصاه فضرب رأس كعب ثم قال له يا بن اليهودية الكافرة ما أنت والنظر في أحكام المسلمين ؟ قول الله أصدق من قولك حيث قال « والذين يكنزون الآية » •

وروى عن رسول الله (ص) انه لما نزلت هذه الآية قال : تبا للذهب تبا للفضة ، يكررها ثلاثا فشق ذلك على الصحابة فسأله عمر فقال يا رسول الله أي المال تتخذ ؟ فقال : لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه » •

وقد روى علي (ع) عن النبي (ص) أن الله فرض

على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقرائهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا وعُروا الا بما يصنع أغنيائهم، ألا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما.

اذا فليست أنصبة الزكاة الا حدا أدنى لما يجب اخراجه ، لا انها هي لا سواها . ثم الكنز الممنوع لا يخص الذهب والفضة ، هذين الجوهرين بما هما جوهران، حتى نفتح الباب للماكرين فيبدلوهما بغيرهما من الاموال ويستريحوا عن الكي بهما .

وانما ذكرا في الآية رمزا لما يملكه الناس كما في الباقري (ع) « انه سئل عن الدنانير والدراهم وما على الناس فقال : هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله لمصلحة خلقه وبها يستقيم شئونهم ومطالبهم .. » .

وليس من المعقول ان تختص حرمة الكنز بالذهب والفضة حتى يستريح الاغنياء بمكيدة ساذجة عن كيّهما الى راحة الجنة مهما كنزوا من الثروات الطائلة !

ثم هنا آيات تنص على أن في المال حقوقا أخرى غير الزكاة :

**الخمس :**

منها آية الخمس « فاعلموا أنما غنمتم من شيء فان

لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » ( ٨ : ٤٢ ) .

فانها تفرض اخراج الخمس من كل الغنائم والمنافع

فنصف الخمس يصرف في سبيل الدعاية الاسلامية «لله» لتحكم توحيد الله « للرسول » تعريف الرسول للناس وابلاغ رسالته « لذي القربى » من يحق للحكم بعد الرسول لكي تتركز الحكومة الاسلامية بعد الرسول على ركيزة العدل والتقوى .

ثم النصف الباقي للطوائف الثلاث من كافة

الفقراء والمساكين وابن السبيل بنص القرآن

وهنا آيات الانفاق غير الزكاة « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ... ».

فقد تذكر فرض الزكاة أخيرا مع ذكرها بعض

المستحقين قبلها ـ كالمساكين وابن السبيل وفي الرقاب ـ والبعض من غيرهم لو لم يكونوا فقراء ومساكين كذوي القربى واليتامى والسائلين .

ففرض الانفاق لهؤلاء الستة لا يعني الزكاة ، فللزكاة أصناف ثمانية : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » ( ٩ : ٦ ) .

**الضرائب الاسلامية :**

فهناك ضرائب مستقيمة ثابتة معينة كالخمس والزكاة وأخرى غير مستقيمة كسائر الانفاقات الواجبة في الظروف الملزمة التي لا يكفي فيها الخمس والزكاة ، وثالثة كفارات وديات .

ولو أن المسلمين أدوا حقوق الله من أموالهم لما بقي فقير ولا واحد في البلاد الاسلامية ، ولكان المسلمون أنشط الامم وأغناهم في الدعايات الواسعة بكل الوسائل والطاقات ، ولكانوا أغنى الامم في الاقتصاديات ، ولكن هيهات .. هيهات وقد تحللنا عن واقع الاسلام الى لفظه !

فهذا الاسلام الذي يأمر المسلمين بالكدح ـ بالسعي والعمل ـ وينهاهم عن التبتل والتعطل والتكاسل وان يلقوا كَلّهم على غيرهم .

هذا الاسلام الذي يمنع عن أكل المال بالباطل : بالربا او القمار او السرقة او البخس في المكيال او الظلم في الاجرة ...

هذا الاسلام الذي لا يرضى بالدنية ولا أن يوجد فقير بائس على وجه الارض ... ـ انه حري له البقاء والخلود ـ لو فهمه وعرفه المسلمون وطبقوه !

فالى حقيقة الاسلام ـ الحرة ـ ايها المسلمون ! ولكي تسود الامم وتسترجعوا السيادة المغتصبة .

**الحضارة الثقافية :**

... التبحر في العلوم : مما لا ريب فيه ان الاسلام سبق كافة الديانات وسائر الانظمة في الدعوة الى العلم الى حيث ثقف أجهل الامم وجعلهم في الصفوف الامامية من المثقفين في مختلف العلوم ، والتاريخ أصدق شاهد على ذلك وقد ينقله غير المسلمين أيضا .

يقول ( جاك س. ريسلر ) في كتابه الحضارة العربية [1] « سيطر الاسلام اثناء خمسمائة عام من ٧٠٠

---

(١) لقد غلط جاك اذ سمى كتابه الحضارة العربية فانها اسلامية حضرت العرب كما حضرت غيرهم .

الى ١٢٠٠ على العالم بالقوة والعلم وبتفوق حضارتـه . كما انه استطاع أن يوسع الافق الفكـري للعصر الوسيط وأن ينفذ بعمق الى الفكر والحياة الاوروبيين .

وقد ارتفعت الثقافـة حتى بلغت درجـات العرش ، ففي بـلاد الاندلس كان الخليفـة ناصر يتحـدث عـن أرسطوطاليس وعن افلاطون مع ابن رشد ، في زمن كانت طبقة الاشراف في الغرب تتباهى بعـدم معرفتها القراءة . وفي قرطبة كان العالم الاموي ـ الحكَم ـ يستخدم مكتبة تضم أكثر من ٤٠٠،٠٠٠ مؤلف ، على حين أن ملك فرنسا شارل الخامس ـ أعني العالم الحكيم ـ لم يستطـع أن يجمع بعده بأربعة قرون من هذه المؤلفات أكثـر من الف مؤلف .

وفي الحق ان انشاء المأمـون العباسي دار الحكمـة في بغداد كان عاملا مهما وحاسما في انتشار العلوم ، ويرى ابن خلدون صاحب المنهج الموضوعي في دار الحكمة هـذه انطلاق الازدهار المشرق للاسلام .

**اسبانيـا الاسلاميـة :**

... وفي الاندلس ـ الاسلامي ـ وصلـت جامعـة قرطبة الى مرتبة الصدارة وتبوأت مكانتها قبـل جامعتـي

القاهرة وبغداد ، وكان أساتذة من الشرق يدعون الى القاء الدروس فيها .

ولقد أضاف ـ الحكم الخليفة ـ سبعا وعشرين مدرسة مجانية الى مدارس كثيرة كان من المعتاد أن يدفع لها نفقات التعليم ، ووصل مستوى الثقافة الى حد ان المستشرق الهولندي ( دوزي ) استطاع أن يقرر ان كل شخص تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة في الاندلس في عصر كانت أوروبا لا تملك فيه غير مبادىء في المعرفة ، هذا الى ان هذه المبادىء نفسها كانت محتكرة لاقلية من رجال الكنيسة ، وقد أسست ايضا مدارس أخرى ومدارس ثانوية في غرناطة وطليطلة وأشبيلية ومرسية والمرية وقادس ، وكانت المدن المغربية قد أصبحت خلايا حقيقية تزخر بالعلماء والمشرعين والاطباء والادباء والشعراء .

طبيب عبد الرحمن الثالث ( ابو القاسم الزهراوي ) علم الجراحة واخترع طرائق جديدة في الجراحة التي امتد نجاحها فيما وراء حدود اسبانيا الاسلامية بكثير ، وكان الناس من جميع العالم المسيحي يذهبون لاجراء عمليات جراحية في قرطبة ، فتقدم الطب في هذه البلاد ، وفي أشبيلية أنجبت أسرة ابن زهر سلالة مهيبة من الاطباء اشتهرت طيلة أكثر من ثلاثة قرون ، وكان الاشهر من بين أعضاء هذه

الاسرة ــ والذي نظر اليه انه رائد ــ هو ابن رشد الذي كان طبيبا ذائــع الصيت وأحــد الشخصيــات الكبيرة في الفلسفة .

ان اسبانيا الاسلامية تستحق مكانا مرموقا في ميدان الحضارات ، فقد كانت تكتب بحروف من الذهب على باب جامعاتها « يستند العالم الى أربعة أركان : علم الحكمــاء ــ عدل العظماء ــ دعاء الصلحاء ــ شجاعة الشجعان » .

لم تكن بطريق المصادفة أن تحتــل المعرفــة في هذا البلد المرتبة الاولى ذلك انه بالعلــم تأصلــت الحضــارة الاسلامية في اسبانيا واستمرت بطريقــة دائمــة لم تأذن لذاكرها أن تمحى بعد .

لقد نفذ العلم الاسلامي والصناعة الاسلامية بعمــق الى الثقافة الغربية .

ولقد أصبحت الجامعة الاسلامية في الاندلس مرجعا ومقصدا لطلاب العلم والفضيلة من شتى أرجــاء العالــم ــ المسيحي وسواه ــ رغم العرقلات الكنسية التي كانت تحول دون قصد الشباب المسيحي للالتحاق بهذه الجامعــة الكبرى ، فثقفت العالم بأجمعه لمدة غير طائلة » .

ونحن مع الواقع العلمي الذي نراه في القرآن لسنا بحاجة الى حجة التاريخ ـ اذ نرى القرآن تقدّم العلم فقدّمه منذ أربعة عشر قرنا ـ فيما لم يكشف عنه العلم حتى الآن [1] .

وأخيرا ان درس الاسلام دراسة خالية عن التعصب ، على تفتح العين النافذة الناقدة ، هذه الدراسة تكفي طلاب الحقيقة أن يقدموا الاسلام بكافة أنظمته الحيوية على سائر الانظمة طوال التاريخ ، والسلام على من اتبع الهدى .

قم: **محمد الصادقي**
تلفون/ ٢٩٣٤٤٤٥/

---

(١) راجع كتابنا « المقارنات » في البحث عن المقارنات العلمية .

# فهرست


| | |
|---|---|
| المقدمة | ٥ |
| المدخل | ٧ |
| الفكر في بحوث | ١١ |
| المادية وأسسها | ٧٥ |
| مختصر تاريخ الحضارات | ١٢١ |
| الرق في نظر الاسلام | ١٤٩ |
| الحضارة الفارسية | ١٥٧ |
| الحضارة الفينيقية | ١٦٠ |
| الحضارة الاغريقية ( اليونانية ) | ١٦٧ |
| الحضارة الرومانية | ١٧٣ |
| سبب انتشار المسيحية | ١٧٧ |
| الحضارة الاسلامية | ١٨١ |